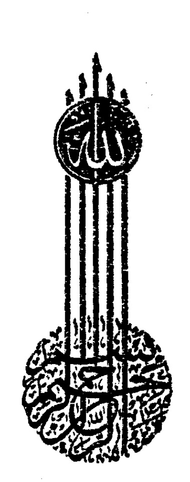
دكتور
عطيه القوصى
أستاذ التاريخ الاسلامى
كلية الآداب جامعة القاهرة بالخرطوم

علم التاريخ

ومناهج البحث والتدوين التاريخى عبر العصور

١٩٨٤

مطبعـــة جامعـــة القاهـــرة بالخرطـــوم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم الخلق أجمعين ، سيد الأنبياء وأشرف المرسلين ، وخير من ذكره التاريخ وتعطرت بسيرته أقوال المؤرخين ، وبعد ..

فلقد وفقني الله تعالى في اخراج هذا الكتاب الى دائرة الضوء ، بعد معاناة من البحث استغرقت عشر سنوات . ولقد اختمرت فكرة تأليفه في ذهني منذ تصديت لتدريس مادة " علم التاريخ ومناهجه "لطلبة قسم التاريخ بجامعة القاهرة . وقد قصدت في هذا الكتاب دراسة علم التاريخ وبيان وضعه بين العلوم الأخرى وابراز مكانته بينهم . كذلك عرضت لمناهج البحث والتدوين التاريخي عبر العصور ، بدءاً بأول كتابة تاريخية خطها الانسان على هذه الأرض ، بعد تعلم الكتابة ، وانتهاءاً بما كتبه مؤرخو التاريخ الحديث . والكتاب في حد ذاته ، يأخذنا في رحلة سياحية ، عبر الزمن ، ويقدم لنا تاريخا للتاريخ ، وتاريخا لاشهر المؤرخين الذين أنجبتهم البشرية ، عبر العصور بداية بهيرودوت ونهاية بأرنولد توينبي . ولقد توسعت في كتابي هذا في دراسة علم التاريخ وتدوينه في العصور الوسطى ، وبخاصة عند العرب ، ولذا جاء فصله اكبر فصول الكتاب ولم أستطع تقسيمه الى فصلين مراعاة للوحدة الموضوعية للبحث . وقد يغفر لي القارئ التوسع في هذا الفصل لو عرف كبر حجم المادة التاريخيه الخاصة بالتاريخ عند العرب ، كذلك لو عرف أن جانب التخصص غالبا ما يجر الباحث الى مثل هذا الانحياز ويضطره رغما عنه الى مثل هذه التوسعة . ولقد خصصت ، في ختام بحثي ، فصلا لتبيان المنهاج الصحيح الحديث للبحث التاريخي ، كمرشد ودليل لأولئك الذين يضعون أقدامهم على أول عتبات البحث التاريخي ، ليستفيدوا بخبرة من سبقهم في هذا الميدان ولينشأوا ويشبوا على القواعد العلمية الصحيحة في البحث التاريخي ، تلك القواعد التي أجمع عليها كل المؤرخين .

واني أتقدم بالشكر والعرفان لكل من ساعد على اخراج هذا الكتاب الى دائرة الضوء . وأرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما قدمت ، وعلى الله قصد السبيل ، وما توفيقي الا بالله العلي القدير .

المؤلف
د . عطيه القوصي
الخرطوم ١٩٨٣

الفصـــــل الأول

التعـــرف علـى علـم التاريـــخ

ماهيـة التاريـــخ :

لدراسة " علم التاريخ ومناهجه " يتبادر الى ذهننا أول ما يتبادر ، أسئلـــة لابد من الاجابة عليها ، وهى أسئلة تتصل بتقيم التاريخ نفسه والتعريف بماهيته قبل دراسة وتبيان المناهج التى سار عليها هذا العلم منذ القدم وحتى الآن .

وأول هذه الأسئلة هى : ماهو التاريخ ؟ وماهو الموضوع الذى يتحدث فيـــه ؟ وهل التاريخ علم يندرج تحت اطار العلوم أم هو ضرب من ضروب الفنون ؟ وماقيمة التاريـخ بين العلوم اذا كان هو واحدا منها ؟ وماهى الفائدة التى يقدمها التاريخ للانسانيـة اذا ما كانت هنالك فائدة يقدمها ؟

ويختلف الناس فى الاجابة على كل هذه الأسئلة الى حد ما ، ولكننا رغم هــذا الاختلاف ، نجد أن هنالك شبه اتفاق بينهم الى أن التاريخ يمثل لونا خاصا من ألـوان التفكير شأنه فى ذلك شأن بعض العلوم مثل : فلسفة الأديان أو التاريخ الطبيعـــى . وكذلك هنالك من خلص الى أن التاريخ ماهو الا نوع من أنواع البحث العلمى وأنه يندرج من حيث الأصـل تحت ما يسمى بالعلوم ، ذلك لأنه يشارك العلوم وظيفتها وهـى : الكشف عن حقيقة الأشياء غير المعروفة . فاذا كان علم الفلك يكشف عن المجهول فى عالـم الفضاء ، وعلم الطب يكشف عن المجهول فى عالم الشفاء والدواء ، فان علم التاريـــخ يكشف عن المجهول فيما قام به الانسان على هذه الأرض .

وكلمـة " تاريخ Histoire , Historia كلمة يونانيـــة الأصل ، دخلت كما هى فى اللغة الفرنسية ومنها اشتقت كلمـــة History الانجليزية ، وهى تعنى فى هذه اللغات ثلاث معان : أولها : الرواية أو الرؤيـــة وثانيها التعلم بواسطة البحث ، وثالثها : المعرفة التى يتوصل اليها عن طريق البحث[1].

(1) هرنشـــو : علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٠ .

وفى اللغة العربية تعنى كلمة "تاريخ": الاعلام بالوقت . قال الجوهـــــرى: التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله ، يقال أرخت وورخت . وقد فرق الأصمعـــــى بين اللغتين فقال : بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا وقيس يقول : أرختـــــه تأريخا ، وهذا يؤكد كونه عربيا "(١) .

وكلمة " تاريخ تحمل فى مضمونها معنيين ، أولهما : الأحداث والوقائـــــع التى وقعت للانسان خلال مسيرته فى هذه الحياة ، والثانية : سجل هذه الأحداث وكثيرا ما يقع الخلط بين المعنيين ، والخلط ، لسوء الحظ موجود وقائم .

فالتاريخ فى الحالة الأولى يشمل الحكاية ، أو المسيرة الانسانية ذاتهـــــا وهو مالم يسجل كله ولم يصل كاملا الى أيدينا ، بينما فى الثانية فهو يعنى : الشىء الذى سجل وحكى على لسان رجال فرغوا أنفسهم لهذا العمل ، وهذا هو التفســـير الحقيقى للكلمة . فليس كل ما وقع تاريخا ولكن ما وصل الينا وسجل وقوعه على يـــــد المؤرخين هو التاريخ بعينه . فكما يتعامل علم الاجتماع مع المجتمع ، وعلم الأحيـــا ء مع الحياة ، يتعامل علم التاريخ مع التاريخ . وانما نطلق على " نابليون" مثلا ، لقـــب " صانع التاريخ " مع أنه لم يخط سطرا واحدا فيه ، وهذا قول خاطئ ، ولكنـــا نقول أن " هيرودوت" أبو التاريخ ، وهذا صواب لأن هيرودوت يعد اماما لأولئـــك الرجال الذين تفرغوا لتسجيل وقائع الانسان واحداثه التى قام بها عبر التاريخ . ولقـــد صار مضمون كلمة " تاريخ " حديثاً : هو العمل الذى يتعامل مع موضوع التاريخ ويقـــوم بدراسته لا الموضوع نفسه . ولذا ، كما يقول شتويل Shotwell (٢) " يجـــب أن تنحصر كلمة تاريخ على دراسة أعمال البشر من خلال المسيرة التاريخية .

ولقد عرّف السخاوى موضوع التاريخ بقوله : " أنه الانسان والزمان " وأن مسائله : " أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضه الموجودة للانسان وفـــى الزمان " (٣) .

---

(١) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ٥ .

(٢) Shotwell: The History of History, New York 1950, p. 7.

(٣) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٧ .

التاريخ علم أم فـــن ؟

منذ مطلع هذا القرن دار نقاش كبير حول التاريخ اذا ماكان علما أم فنـــا ولقد استمر هذا النقاش واستغرق وقتا طويلا فى أوربا وخاصة فى ألمانيا وكان الناس فى العصور الوسطى يعتبرون التاريخ فنا وأدبا ولا يدرجونه ضمن اطار العلـــوم ولقد عرف السخاوى التاريخ اصطلاحا بقوله عنه :

" هو فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ، بـــل عما كان فى العالم" (١) .

ولقد أجاب على هذا السؤال العلامة المؤرخ الشهير بيورى Bury (٢) فى محاضرته التى ألقاها فى جامعة كمبروج بقوله " ان التاريخ علم لا أكثر ولا أقل (٣).

---

(١) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٧ .

(٢) هو : John Bagnell Bury ، وكان استاذ اللغات القديمـــة قبل أن يصبح مؤرخا . وتأتى شهرته كمؤرخ من كتاباته عن الفترة المتأخـــرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية والعصر البيزنطى . وكان فى سن الثامنـــة والعشرين قد أصدر كتابه :

"A History of the Later Roman Empire, from Arcadius to Irene, 395 A.D-to 800 A.D. (2 vols. 1889).

وكتب كذلك فى موسوعة : كمبردج cambridge Ancient History وكان فى شبابه مهتما بالفلسفة خاصة بفلسفة هيجل ثم تحول عنها الى المشاكل الفلسفية فى الدراسة التاريخيه . وفى عام ١٩٠٢ ، حين خلـــــف Lord Acton كأستاذ لكرسى التاريخ الحديث بجامعة كمبردج ألقى محاضره بعنوان : " علم التاريخ The Science of History

(٣) Rowse : The Use of History, p. 86.

يقول بيورى (١) : " ليس التاريخ فرعا من فروع الأدب ، وان حقائق التاريخ تشبه حقائق علم الجيولوجيا أو علم الفلك . وان صياغة قصة المجتمع الانسانى فى ثوب ادبى لا تزيد عن كونها جزءا من عمل المؤرخ كمؤرخ ، شأنه فى ذلك شأن ما يصنع عالم الفلك حين يسرد بطريقة فنية قصة كواكب الفضاء" ويدافع بيورى فى ختام مقالة عن علم التاريخ بقوله (٢) :

" علينا أن نتذكر دوما أن التاريخ ، اضافة على أنه يزود الأدب بمادته الفنية أو بأفكاره الفلسفية ، هو فى حد ذاته ، ببساطة ، علم لا أكثر ولا أقل" .

كذلك أجاب كولنجود عن هذا التساؤل بقوله (٣) :

" فى اعتقادى أن كل مؤرخ سوف يتفق معى فى أن التاريخ نوع من أنواع البحث العلمى ، ولست أسأل الآن أى نوع من أنواع البحث هو ، وانما المهم هو أن التاريخ من حيث " الأصل " ، يندرج تحت ما نسميه بالعلوم ، وهى التى نقصد بها ألوانا من التفكير تبعث فينا أسئلة معينة نحاول الاجابة عنها . ومن المهم أن ندرك أن العلم ، بصفة عامة ، لا يتألف من جميع ألوان المعرفة التى اكتسبناها ثم أضفناها لتنظيم أو ترتيبهمين ، وانما هو يتألف من تركيز الجهد فى شيء لا نعرفه لنحاول أن نتعرف على حقيقته " .

ويقرر " شتويل " Shotwell بأن التاريخ علم وفن معا وهو فى ذلك يقول : " بالنسبة للذين يبحثون فى اذا ما كان التاريخ علما أم فنا استطيع أن أقول بأنه فى الحقيقة عم وفن وأنه الأمران معا . ذلك لأنه من حيث مجال البحث الذى يشتمل هذه المادة يدخل ضمن نطاق العلوم ، ومن خلال السرد القصصى والروائى هو يدخل فى مجال الفنون ، فهو اذن علم وفن وهنا تكمن عظمة دراسة التاريخ " (٤).

---

(١) Stern Fritz : The Varieties of History, U.S.A., Cleveland 1961, p. 214.

(٢) Stern: Op. Cit., p. 223.

(٣) كولنجود : فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ، القاهرة ١٩٦١، ص٤١، ٤٢.

(٤) Shotwell: The History of History, p. 9.

ويرى المدافعون عن التاريخ كعلم (١) أن أقرب العلوم الطبيعية شبها له هو علم الجيولوجيا ، اذ يدرس الأول ماضي المجتمعات الانسانية بينما يدرس الثاني ماضي الكرة الأرضية . والجيولوجي حين يدرس تطور تكوين الأرض الراهن وكيف صارت الى هذه الحال يتشابه مع المؤرخ الذى يدرس احوال الانسان فى الماضي ليفسر بواسطتها ـ قدر الامكان ـ احوال هذا الانسان فى الحاضر . ومادة المؤرخ الوثائق ومادة الجيولوجي الصخور والاحجار .

ولقد أنكر الفلاسفة الطبيعيون صفة العلم على التاريخ واستندوا فى رأيهم هذا على نقاط أربع هى (٢) :

(أ) أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم التى يشتغل بها الفلاسفة الطبيعيون من حيث كونها غير ثابتة وغير قابلة للتحديد على خلاف موادهم الثابتة والمحددة .

(ب) ان مادة التاريخ لا تخضع لقانون التجربة والمشاهدة الذى يطبقونه على مادتهم ، بمعنى أنه لا يستطاع معاينة وقائع التاريخ معاينة مباشرة وأن التجربة والمشاهدة أمران غير ممكنين فى الدراسة التاريخية .

(ج) ليس فى الامكان الوصول فى التاريخ ، مثلما يحدث فى العلوم ، الى شئ من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية ، ذلك لأن كل واقعة من وقائع التاريخ المسلم بها ، هى واقعة قائمة بذاتها وليس فى الامكان تصور وقوعها فى ظروف مشابهة ، أو تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها .

(د) ان عنصر المصادفة يلعب دورا هاما فى التاريخ ، وذلك يهدم كل تقدير مسبق للمؤرخين .

---

(١) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص٢٣٦.
ـ هرنشو : علم التاريخ ، ص١٢ ، كولنجود : فكرة التاريخ ، ص٤٢.
ـ Rowse: The Use of History, p. 110.
(٢) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٢ ، ٣ .

ورد على هذه النقاط المدافعون عن التاريخ كعلم بالآتي :

بالنسبة للنقطة الأولى قرروا أن مادة التاريخ ثابته ومحددة وهي الانسان ، الانسان الثابت الغير متغير الصانع لكل العلوم المادية والمطور لها . والتاريخ عندهم يبحث في الفعل ورد الفعل الصادرين عن انسان غير متغير أصلا . (١)

أما عن النقطة الثانية الخاصة بالتجربة والمشاهدة فلقد ردوا بأن استخدام التجربة والمشاهدة أمر وارد في دراسة التاريخ ، ذلك لأن للتاريخ دورات متشابهة على طول عهود الانسان وان بدراسة هذه الدورات نستطيع أن نضع القوانين والقواعد المسبقة التي تكون نسبة توقع النجاح فيها مماثلا تقريبا لنسبة توقع النجاح في تجارب أي علم مادي آخر ، والاختلاف فقط في النسبة . فهنالك ظاهرة قيام الأمم وتطورها وازدهارها ثم تدهورها وانهيارها والقواعد والقوانين التي وضعت بصدد هذه الظاهرة التاريخيه . كذلك هنالك ظاهرة استبدادية الحكام ونتائج هذه الاستبدادية وظواهر قهر الشعوب ونتائج هذا القهر ، وظواهر الاستعمار والتمرد ، وغير ذلك من الظواهر التي من الممكن اخضاعها لقوانين التجربة والمشاهدة .

أما عن عنصر المصادفة والادعاء بأنه يلعب دورا في التاريخ ، فان علوم كثيرة تشترك مع التاريخ في ذلك ، ولقد لعبت المصادفة دورا كبيرا في التوصل الى نظريات وابحاث علميه في علوم الطبيعة والكيمياء والتكنولوجيا وغير ذلك . فعنصر المصادفة في التاريخ لا ينفي عنه صفة العلم بعد أن اشترك في هذا العنصر علوم عديدة .

وهنالك سبب رئيسي يدعو المدافعين عن التاريخ كعلم الى التمسك برأيهم وهو أن الباحث في التاريخ لا يقف عند حد وصف الحوادث الماضية وتنسيقها فحسب ، بل يرمي الى الكشف عن العلاقات السببية التي توجد بينها لتفسيرها

---

(١) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٤٤ .

وتعليلها (١) . وقد اشار الى ذلك العلامة المسلم ابن خلدون قبل مئات السنين حين قال فى مقدمته الشهيره عند تعريفه لعلم التاريخ (٢) : " اذ هو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق وجدير بأن يعد فى علومها وخليق ".

خلاصة القول أن التاريخ قد أكد نفسه كعلم وأخذ مكانه بين العلوم كعلم جليل وهام لذاته ولخطورته الخاصة بين حقول المعرفة . كذلك أكد فى نفس الوقت كونه فن رفيع أصيل بما يحتويه من أدب جليل .

وبعد أن كان البعض ينظرون اليه كمادة لا ترقى الى مستوى العقل هاهم اليوم يرون فيه ما يتجاوز هذا المستوى بدرجات لا تحصى (٣) . ويكفى التاريخ كعلم أن جمع رجاله بين صفة العلم وصفة الأدب ، ولقد تزاملت هاتان الصفتان فى كبار المؤرخين منذ القدم وحتى الآن : تزاملت فى هيرودوت وثوكوديدس ، فى تاكتيوس وليفى ، فى هيوم وجيبون ، وفى ماكولى وكارليل ، فلقد كان جميع هؤلاء المؤرخين عظام الى جانب كونهم فنانين وأدباء عظام عاشوا بين كتاب وأدباء وفنانى عصورهم العظماء (٤) .

هذا وبعد أن حُسم النقاش فى مسألة كون التاريخ علم أو أدب اتجه الرأى الى دراسة التاريخ كموضوع مهم وحيوى لذاته ودراسته كعلم له أسسه ومناهجه وطرائق بحثه ودراسة أهدافه ، كذلك تبيان خطورته بين حقول المعرفة .

---

(١) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٣٦ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ، القاهرة ١٣٢٠ هـ ، ص ٣ ، ٤ .
(٣) هورس : قيمة التاريخ ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٦ .
(٤) Rowse : The Use of History, p. 112.

فائدة تدريس ودراسة التاريـــــخ :

هدف التاريخ هو فى معرفة الانسان بنفسه وربطه بجذوره الأصيلة . وتعـــنى معرفة الانسان لنفسه معرفة ما يستطيع أن يفعله ونوع الأرض التى يقف عليها . واذا ما أردنا أن نعرف أنفسنا لنعرف المجهود الذى نقدر عليه فعلا فعلينا أن نعـــرف الجهد الحقيقى الذى بذله أجدادنا قبلنا منذ أن تواجدوا على هذه الأرض . ومن هذا يتضح أن قيمة التاريخ ترجع الى أنه يخبرنا بأعمال الانسان فى الماضى أى ـ بحقيقة ما كان عليه هذا الانسان بالفعل . ومعرفة الماضى تكسب الانسان خـــبرة السنين الطويلة وتجعله يضيف الى خبرة عمره خبرات من عاشوا قبله وذلك يجعلـــه أقدر على فهم طاقاته وقدراته ويجعله أجدر بحسن التصرف فى حاضره وفى مستقبلـــه(١) ذلك لأنه اذا كان هدفنا فى الحياة هو أن نحيا حياة كريمة وجب علينا أن ـ نستعين بكل الخبرات السابقة لنا فى شتى المجالات والتى تساعدنا على العيـــش وعلم التاريخ هو الخزانة التى سنجد فيها هذه الخبرات .

وتدريس التاريخ هو من أشد الأمور أهمية فى حاضر الشعوب ذلك لأنـــه السجل الذى يأخذون منه العبرة والموعظة والدروس ويتجنبوا ، بالاستفادة منهـا ، أخطاءً ومآزق عظيمة قد يدفعون ثمنا غاليا لها . وحياة الانسان على هذه الأرض ـ حياة غالية كلها دروس وعبر يجب أن تخلد ليستفيد فيها الخلف من السلف . واليوم هو ابن الأمس والغد هو ابن اليوم والأيام دول بين الناس (٢) . ولولا التاريـــخ ما وصلت الانسانية لما هى عليه الآن من تقدم تكنولوجى واجتماعى وعمرانى عظـــيم ولذلك عرف المؤرخ الانجليزى الشهير المعاصر توينبى التاريخ بأنه "بوصلة فى سفينـة الشعوب" ، كما عرفه بأنه : قصيدة يلقيها الزمن على مسمع الانسان" (٣) .

---

(١) هورس : نفس المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٢) Wells, H.G; The Outiline of History, p. 2.

(٣) اورد ذلك توينبى فى كتابه الشهير : A study of History
انظر آراء توينبى فى الفصل الخاص بتدوين التاريخ فى العصر الحديـــث والمعاصر .

وكان المؤرخ العربي العظيم "السخاوي"[1]، قد أشار قبل توينبي بمئات السنين (توفي في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) الى أهمية دراسة التاريخ لما له من فائدة كبرى وهو يقول في هذا الصدد ما نصه : "أما فائدته فهي معرفة الأمور على وجهها ، وهو يذكر أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم ، فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم والحكماء وكلامهم والزهاد والنساك ومواعظهم عظيم الغناء ، ظاهر المنفعة . فما يصلح الانسان به أمر معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته ، وسيرته في أمور الدين ، وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدينوي ، وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادئ الدول واقبالها ، ثم انقراضها ، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها أبدا في العالم ، غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها ، وباشر تلك الأحوال بنفسه فيغزر عقله ويصير مجربا غير غر ولا غمر "[2] . وأضاف السخاوي في مقام آخر مشيدا بفضل المؤرخين والاشتغال بالتاريخ بقوله : "الاشتغال بفن التاريخ للعلماء من أجّل القربات ، بل من العلوم الواجبات المتنوعة للأحكام الخمسة بين أولي الاصابات "[3] .

ولقد تصدت أعداد كبيرة من العلماء والمؤرخين للدفاع عن التاريخ كعلم والدفاع عن الدور الخطير الذي يلعبه هذا العلم في حقول المعرفة وفي المجتمع البشري في الماضي وفي الحاضر . ولقد ألف هؤلاء العلماء الأجلاء كتبا كثيرة أظهرت هذا الأمر وكانت هذه الكتب بما احتوته من مادة علمية غزيرة خير مدافع عن التاريخ ودوره في الحياة وخير مرشد في تبيان الطرق والمناهج الصحيحة في الدراسة التاريخية .

---

(١) هو المؤرخ الحافظ شمس الدين بن محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، المتوفى عام ٩٠٢هـ ، وصاحب كتابه الشهير الذي ألفه في تمجيد دراسة التاريخ ومدح المؤرخين وذم أعدائهم والذي جعل عنوانه :

" الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ "

(٢) السخاوي : "الاعلان بالتوبيخ ، ص ٣٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٤ .

وفى مجال التقدير والعرفان ليس أقل من أن نشير اشارات موجزة الى بعض هؤلاء الأعلام الذين أنصفوا التاريخ ووضعوه فى موضعه الصحيح كعلم رائد وضرورى بين سائر العلوم :

(١) المؤرخ الألمانى الاستاذ "دروبسن" J.S. Droysen
صاحب كتاب "خطط التاريخ" : (Grundrise der Historik)
الذى صدر فى ألمانيا سنة ١٨٥٨ . وأمتاز هذا المؤرخ فى كتاباته بقوة الشخصية وبقدرته على استقصاء القوى الخطيرة المحركة فى التاريخ .

(٢) المؤرخ الانجليزى الاستاذ "فرود" J.A. Froude
صاحب كتاب "علم التاريخ" : (The Science of History)
الذى كتبه فى لندن سنة ١٨٦٤ ، وهو من أوائل المدافعين عن التاريخ كعلم مثبتا ذلك فى كتابه هذا .

(٣) المؤرخ الانجليزى "فريمان" E.A. Freeman
الذى عاش فى الفترة ما بين (١٨٢٣-١٨٩٢) ، وصاحب كتاب :
"طرق الدراسة التاريخية" (Methods of HistoricalStudy)
والذى نشره فى لندن سنة ١٨٨٦ . ولقد اعتبر فريمان أن طريقة الدراسة التاريخية الصحيحة هى : ضرورة الاستمساك بفكرة الوحدة العامة للتاريخ وضرورة الرجوع فى البحث التاريخى الى المصادر الأصلية .

(٤) المؤرخ الألمانى الاستاذ "برنهايم" B. Bernheim
صاحب كتاب : "فى الطريقة التاريخيه"
(Lehrbuch der Historischen Methode)

والذى صدر فى ألمانيا سنة ١٨٨٩.

(٥) المؤرخ الفرنسى الشهير الاستاذ "لانجلوا" C. Y. Langlois
وزميله الاستاذ "سينوبوس" C. Seignobos استاذ التاريخ الفرنسى المعاصر الشهير ، اللذان اشتركا فى وضع كتابهما الشهير:
(Introduction aux Etudes Historiques).

وصدر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٨٩٨ وأعيد طبعه لأكثر من مرة .

(٦) المؤرخ الألمانى المعاصر "ماير" E. Meyer والمتخصص فى دراسة التاريخ القديم ، وصاحب كتاب : فى نظرية التاريخ وطريقته" :

(Zur Theorie und Methodik der Geschichte)

ولقد صدر هذا الكتاب مع مطلع القرن العشرين ، ويعد من أشهر كتبه وحاول فيه ان يثبت أهمية عادات الشعوب وآثارها وعُطلتها القصوى فى فهم التاريخ عامة والتاريخ القديم على وجه الخصوص .

(٧) المؤرخ العلامة الانجليزى الشهير "بيورى" J. B. Bury والذى تأتى شهرته من كونه أعظم مؤرخى العصور الوسطى وذلك لكتاباته الهامة عن الفترة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية والعصر البيزنطى وكان مع مطلع القرن العشرين يشغل أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة كمبردج . ألقى محاضرات فى جامعة كمبردج دافع فيها عن التاريخ كعلم وجمعت فى كتاب جعله بعنوان : محاضرات فى التاريخ" .

(Lectures on History)

أصدرته جامعة كمبردج سنة ١٩٠٣ .

(٨) المؤرخ الانجليزى المعاصر الشهير "كرمب" (G.S. Crump)

صاحب كتابىّ : "منطق التاريخ" (The Logic of History)

الذى اخرجه سنة ١٩١٩ ، و "التاريخ والبحث التاريخى"

(History and Historical Research)

الذى أخرجه سنة ١٩٢٨ .

(٩) المؤرخ الانجليزى المعاصر "جاردنر" (P. Gardiner)

صاحب كتاب : "طبيعة المفاهيم التاريخيه" (The Nature of Historical Explanations).

والذى أخرجته جامعة أكسفورد سنة ١٩٥٢.

(١٠) المؤرخ الانجليزى "أومان" (Charles Oman)
صاحب كتاب: "فى كتابة التاريخ" (On the Writing of History)
والذى صدر فى لندن سنة ١٩٣٩.

(١١) المؤرخ الانجليزى المعاصر "رينر" (G.J. Renier)
صاحب كتاب: "التاريخ، هدفه وطريقته"
(History, Its Purpose qnd Method)
والذى أخرجه فى لندن سنة ١٩٥٠.

(١٢) المؤرخ الأمريكى المعاصر "شوتويل" (James T. Shotwell)

استاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الامريكية وصاحب كتاب "تاريخ التاريخ"
(The History of History)
الذى أخرجته جامعة كولمبيا سنة ١٩٥٠.

(١٣) المؤرخ السياسى المعاصر "كيسنجر" (H. Kissinger)
وزير الخارجية السابق للولايات المتحدة الأمريكية ومن رجالها السياسيين المعروفين
صاحب كتاب: "معنى التاريخ"
(The Meaning of History)
والذى صدر له فى الستينات.

(١٤) المؤرخ الانجليزى الراحل "توينبى" (Arnold Toynbee)
والذى كان يشغل منصب مدير المعهد الملكى البريطانى لدراسة الشئون الدولية
(والذى توفى يوم الاربعاء ٢٢/١٠/١٩٧٥ عن ٨٦ عاما).
ألف كتباً كثيرة فى التاريخ أشهرها كتابه: "دراسة التاريخ":
(A Study of History)
وهو يتكون من عشرة أجزاء، استغرق فى كتابته عشرين عاما (١٩٣٤-١٩٥٤).

تطور البحث والتدوين التاريخى عبر العصــور :

حرص الانسان منذ القدم على البحث التاريخى وعلى تدوين تاريخه باعتبــار أنه تراث تستفيد منه الأجيال التى تجئ من بعده ومحصلة تجارب تساعد الأبناء والأحفاد فى المستقبل على مواجهة الحياة . ولذلك فلقد ظهر المؤرخون منذ القدم وتواجد المؤرخون على مر العصور والحقب التاريخية المختلفة . وكتب كلّ تاريخــه وتاريخ غيره كما رآه صحيحا ، واختلف لذلك منهج البحث التاريخى خلال هــذه العصور الى أن انتهى فى العصر الحديث والزمن المعاصر الى الأسلوب الذى هو بين أيدينا الآن .

ونحن بصدد الحديث عن" علم التاريخ ومناهجه" التزمنا فى كتابنا هــذا بسرد المراحل التى مر بها البحث والتدوين التاريخى عبر العصور التاريخيــه المختلفة المعروفة . كذلك التزمنا بابراز أهم المؤرخين الذين ظهروا فى كل عصـر منها وذكر ونقد أهم مؤلفاتهم التاريخيه وتبيان منهج البحث التاريخى الذى التزم به كل منهم فى كتاباته . ولذلك فنحن نعتبر كتابنا هذا تأريخاً لسيرة علم التاريــخ نفسه وتأريخاً لمناهج البحث فيه منذ أقدم العصور وحتى الآن . ولقد التزمنــا هذا المنهج فى دراستنا حتى لا يحدث اللبس للقارئ وحتى يكون الالتزام بمنهــج البحث التاريخى الصحيح هو رائدنا ونحن فى مجال الحديث عنه .

( )　　( )　　( )

الفصل الثاني

البحث والتدوين التاريخي في الزمن القديم

(١) تاريخ الحكومة الدينية والقصص الخرافي :

ترجع بداية الاهتمام بالبحث والتدوين التاريخي الى بداية البشرية وبداية تواجد الانسان على هذه الأرض ، وحين تعلم هذا الانسان الأول أن يسأل وأن يخبر في اشارات لما يحدث ، وقتها بدأ التاريخ (١) . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن ضمت هذه المدة الطويلة كل ماحدث للبشرية خلال عمرها الطويل وقام المؤرخون بتتبع هذه القصة من عصر الى عصر . ولقد كتب كل جيل من الأجيال على مدى عمر البشرية ، تاريخا خاصا به ، وهو التاريخ كما رآه ، وكما حل على ضوئه مشاكله . ولذا نجد التدوين التاريخي لكل جيل من البشر مرآة لتفكيره ونسمع فيه صدى للهواجس التي كانت تشغله (٢) .

ونستطيع أن نقول أن المؤرخين هم الذين صنعوا التاريخ وأنه وُلد على أيديهم وأنهم هم الأمناء عليه ، وعلى هذا الأساس نقول أنه ليس من الممكن معرفة التاريخ الا بدراسة ما سطره هؤلاء المؤرخون وما تركوه لنا من أعمال .

والبحث عن أقدم تدوين للتاريخ يجب أن يبدأ في بلاد الشرق الأوسط في المنطقة ما بين نهري دجلة والنيل . في تلك المنطقة التي تأكد استقرار الانسان الأول فيها وبداية صنعه للحياة على هذه الأرض ، وهي ذات المنطقة التي شهدت مهبط الوحي وبعث الرسل والأنبياء ونمت فيها العقيدة . وهي أيضا أول المناطق التي اهتدى فيها الانسان الى صناعة الكتابة وفن التدوين .

---

(١) Shotwell: The History of History, New York 1950, P. 12.

(٢) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ، ص ١٧ .

وفي تلك المنطقة ارتبطت كل العلوم بما فيها التاريخ بالعقيدة ارتباطا وثيقا خاصة في الزمن القديم . ولذلك عُرف تاريخ تلك البلاد في العصور السحيقة بالتاريخ الديني ، وهو تاريخ وردت فيه الخوارق الطبيعية وامتلأ بالحكايات والأساطير التي ينصب موضوعها على العناية الالهية (١) .

والتاريخ الديني (٢) لا يعرض في الأصل لأفعال الانسان ولكنه يعرض لأفعال القوى الالهية العلوية ، ورغم ذلك فهو يتناول هذه الأفعال من خلال السرد القصصي الذي كان ينتظمها وهو ما عُرف باسم الأساطير . وهذه الأساطير ، التي تحتوي على هذا التاريخ الخاص بالآلهة ، تشير بين سطورها الى رجال الدين وخدمة المعابد على أنهم المنفذون لارادتهم على الأرض . ولقد اعتبرت هذه الأساطير الانسان دون حول أو قوة واعتبرته مجرد منفذ لارادة الآلهة وآداة لتحقيق ما يريدونه .

وتخرج هذه الأساطير عن حاجز الزمان والمكان ، ويصور مدونو أحداثها أن أحداثها وقعت في ماض سحيق لا قِبل لبشر بمعرفته او تحديد توقيته . ولذلك اُعتبرت هذه الأحداث من قبيل الخوارق المحضة التي كان على انسان ذلك الوقت أن يتقبلها دون نقاش أو تفكير . وبسبب خروج هذه الأساطير عن اطار الزمن أُطلق عليها : "بداية الأشياء" .

والتزم واضعو هذه الأساطير في سرد أحداثها بالترتيب الزمني رغم عرضهم للعلاقات بين مختلف الآلهة ولأفعال الآلهة وهي أشياء لا يحدها زمن ولا تخضع لقيد . ومن هنا وُجد السرد التاريخي في هذه الأساطير وجاءت أخبار الناس في ذلك الوقت بكمية قليلة وسط الكم الهائل الذي احتوته من أخبار الآلهة وعن موضوع ميلادهم وتناسلهم وتسلسل تواجدهم (٣) .

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٢٤ .

(٢) وهو يتناول العقائد القديمة والأساطير المختلفة والأناشيد الدينية وغير ذلك . وتعد "نصوص الأهرام" اقدم امثلة الأدب التاريخي الديني . وهي نصوص سجلت على بعض أهرامات مصر القديمة لتكون عونا للميت في الحياة الأخرى بعد البعث وعند الحساب .

(٣) Shotwell: The History of History, pp. 47-50.

ولقد سيطر التاريخ الديني الأسطوري على تفكير جميع سكان منطقة الشرق الأوسط حتى الوقت الذي ظهر فيه اليونان . وتجلت هذه السيطرة بوجه خاص بين شعب مصر وشعب بلاد الرافدين .

أ) التاريخ عند قدماء المصريين :

عرف قدماء المصريين التاريخ ، وسجلوا تاريخهم على الحجر وعلى أوراق البردى منذ عهد الدولة القديمة . ولقد وُجدت قوائم لملوك مصر الأقدمين ، ووضع كل ملك تاريخا لنفسه سرد فيه ما قام به من عظيم الأعمال وجليل الأفعال دون الاهتمام بتاريخ من سبقه ، وذلك عن عمد منه ، تمجيدا لنفسه وافتخارا واظهارا لمكانته امام رعيته . ولقد وُجدت بعض هذه القوائم على جدران مقابر الملوك ومدافنهم وعلى جدران معابدهم . ومن خلال هذه القوائم تعرفنا على تاريخ متفرق لعدد من ملوك مصر الفراعنه ، وتأكدنا من معرفة مصر القديمة للتاريخ واهتمامهم بالتدوين التاريخي .

كذلك وُجدت لهؤلاء الملوك وثائق وسجلات خاصة على قطع من أوراق البردى وعلى قطع الأحجار وتعهدوا بهذه الوثائق الى كبار الكتاب من النبلاء واودعوها في خزائنهم الخاصة في قصورهم تحت رعاية وعناية تامة .

وفي بعض هذه الوثائق احتفظ المصريون القدماء بأساطيرهم التي تحوى على معلومات خرافية عن أصل العالم وعن أعمال خارقة للآلهة متعرضه لمولدهم وتناسلهم وتسلسلهم ولكيفية مجيئهم من الأرض المقدسة في الاقليم الجنوبي .

وجاءت اشهر قوائم ملوك مصر القدماء على لوحات ثلاث ، وجدت الأولى في ابيدوس والثانية في سقارة والثالثة جاءت من معبد الكرنك بالأقصر . وقد ألقت هذه اللوحات الثلاث شعاعا من الضوء على تاريخ مصر القديم (1) . وتنتسب اللوحه الأولى

---

(1) Shotwell: The History of History, p. 77.

للملك "سيتى الأول" من الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٠٠ ق.م) ولقد صور فيها هذا الملك وهو يقف والى جواره ابنه رمسيس (الثانى) وأمامهما قائمة بأسماء خمس وسبعين من أجداده [١] . ونرى فى اللوحه الثانية الملك رمسيس (الثانى) يقف ويسجل أمامه أسماء سبع وخمسين من أجداده فى قائمه . ويطل علينا فى اللوحة الثالثة الملك تحتمس الثالث " من الأسرة الثامنة عشرة وأمامه قائمة مسدون فيها اسماء واحد وستين ملكا من أجداده .

ولقد جاءت لنا بعض أخبار تاريخ مصر القديم من على حجر شهير يعرف "بحجر بالرمو" ، (وهو ينتسب لمدينة بالرمو المحفوظ فيها وهى من مدن جزيرة صقليه) .والحجر صخرى من الديوريت يبلغ طوله حوالى ١٧ بوصة وعرضه ٩½ بوصه وسمكه ٢½ بوصة . وقد كتب على هذا الحجر ، منذ لا يقل عن ألفى عام قبل وجود التوراة ، اسماء خمس أسر حكمت مصر فى التاريخ القديم ، وهى الأسر الخمسة الأولى والتى حكمت مصر من ٢٧٥٠ حتى ٢٦٢٥ قبل الميلاد.وخلال سطور هذا الحجر نقرأ ما سجله المصريون القدماء من تاريخهم ، ففى السطر الثانى نقرأ عن حكم الأسرة الاولى وعن بعض أحداثها مسجلة عاما بعد عام . وفى السطر الرابع نقرأ عن الاسرة الرابعة وعن مساحة الأرض المزروعة ودخل هذه الارض ، حتى نستطيع أن نستخلص من خلال هذه المعلومات الاقتصادية أول ما كتب على الآثار فى تاريخ مصر الاقتصادى فى الزمن القديم . ويستمر حجر بالرمو فى سرد تاريخ الأسرة الرابعة وتاريخ ثلاثة من ملوك الأسرة الخامسة .

وتعد بردية تورين [٢] من الوثائق التاريخيه الهامة التى ورد فيها قوائم بأسماء ملوك مصر القديمة وسنى حكمهم محددة تحديدا دقيقا . وترجع هذه البردية الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، الى عهد الملك رمسيس الثانى من ملوك الأسرة

---

(١) بدأت باسم الملك مينا من ملوك الأسرة الأولى ، وكان آخر ملك فى القائمة هو الملك سيتى الاول نفسه .

(٢) عثر عليها المستكشف الاثرى الايطالى دروفيتى Drovetti سنة ١٨٢٠ وهى محفوظة بمتحف مدينة تورينو بايطاليا ، وهى من ورق البردى وتعد اقدم وثيقة كتبت على هذا الورق بالخط الهيراطيقى .

التاسعة عشرة .

وهنالك مصدر هام للتاريخ الفرعونى القديم يسرد أهم الأحداث التى وقعت فى عهد الملك تحتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة (١) ، وذلك ما وجد من نصوص مكتوبة ، بأمر من ذلك الملك ، على جدران البهو المحيط بقدس اقداس معبد الكرنك (معبد الاله آمون) بالأقصر . وتقص لنا هذه الكتابة أخبار سبع عشرة حملة قام بها هذا الملك ، عاما بعد آخر ، على غرب آسيا . وورد فيها أن هذا الملك هزم قوات السوريين فى معركة "مجدو" . وقد ورد فى هذه النصوص تفاصيل معركة مجدو ومجريات أحداثها يوما بيوم ، الأمر الذى ساعدنا فى دراسة التاريخ الحربى للمصريين القدماء . وأنه ليظهر لنا من صيغة ما سجل على هذا الأثر أنه سُجل كسجل للمستقبل يفاخر به هذا الملك ويظهر عظمته امام الأجيال القادمة وبذلك نستنتج أن قدماء المصريين عرفوا التاريخ وأنهم قصدوا تدوين تاريخهم (٢) .

ومن الضرورى أنه كان هنالك الكثير من هذه الوثائق التاريخيه عند كهان المصريين القدامى وخدمة المعابد . ولقد جمع المؤرخ "بوستد" Breasted وغيره ممن أرخوا لمصر القديمه الكثير من هذه المادة التاريخيه التى كانت عونا لهم فيما ألفوه من كتب تتصل بتاريخ مصر القديم .

ومما يؤكد لنا معرفة مصر القديمة للتاريخ وحرص ملوكها على تدوين تاريخهم ظهور مؤرخين مصريين فى ذلك الزمن السحيق . ففى بداية القرن الثالث قبل الميلاد ظهر المؤرخ المصرى "مانيتون" ، وقد كان كاهنا من بلدة سبينتوس (سمنود الحالية بالدلتا) عاش فى عهد الملك بطلميوس الثانى (٢٨٣-٢٤٥ ق.م) ولقد أرخ مانيتون لقدماء المصريين وكتب تاريخا لملوكهم باللغة اليونانية التى كان

---

(١) وهى موجودة الآن بمتحف اللوفر بباريس وكانت هذه اللوحة مقامة فى احدى القاعات الصغيرة ببهو الأعياد فى معبد الكرنك ودون عليها اسماء ٦١ ملكا كان يعتقد تحتمس الثالث أنهم اسلافه من الملوك .

(٢) Shotwell: Op. cit., p. 83.

يتقنها ، وتعد كتاباته من أهم ما كتبعن تاريخ مصر القديم . ولكن لسوء الحظ فقدت كتاباته ولم يصلنا منها الا جزءا ضمّنه المؤرخ اليهودى يوسيفوس Josephus (الذى عاش فى القرن الاول الميلادى) كتابه "رسالة ضد أبيون"(1) . وبالاطلاع على ما كتبه مانيتون من خلال ما أورده يوسيفوس نستطيع أن نضع يدنا على مؤرخ عالم صادق أخذ مادته التاريخيه من وثائق هامة اطلع عليها فى مكتبة الاسكندرية الشهيرة(2) هذا ولقد أطلق المؤرخ اليونانى الشهير "هيرودوت" على مانيتون لقب "مؤرخ مصر الأوحد" (3) .

ونخلص مما ذكرنا بأننا نستطيع أن نقول أن قدماء المصريين عرفوا التاريخ وحرصوا على تدوينه ، وأنهم سجلوا تاريخهم من خلال قصص وحكايات ادبية دخل فيها الشكل الاسطورى . وأن هذه الكتابات التاريخيه جاءت غير مترابطة وليس فيها نظرة المؤرخ الناقد التى سوف نشاهدها فى بلاد اليونان .

(ب) سجلات البابليين والآشوريين والفرس :

عُرف أهالى المنطقة التى كانت تسكن بلاد الرافدين (العراق) منذ أربعة الاف سنة قبل الميلاد باسم السومريين . وكان هؤلاء السومريون من أوائل الشعوب التى سكنت تلك المنطقة وقد أطلق عليهم هذا الاسم نسبة الى "سومر" أول المدن التى نزلوا فيها فى جنوب العراق . ولقد عرف أهالى تلك المنطقة الكتابة المسمارية على الطين . ويدين التاريخ لهؤلاء الناس بما خلّفوه من كتابات على جدران معابدهم وبما خلّفوه من بعض الأوانى المنزلية الصلبة التى كانوا يستعملونها فى منازلهم .

---

(1) أو الرد على أبيون ، وقد كان أبيون كاتبا قديرا وعالما يونانيا عرف بعدائه الشديد لليهود .
Shotwell: Op. cit., p. 85.

(2) كان مانيتون يجيد معرفة اللغة اليونانية وديانة وحضارة الاغريق ، كما كان ملما بتاريخ مصر ، وقد كتب تاريخ مصر باسم المصريات Aegyptiaka

(3) وقد قسم الملوك الذين حكموا مصر الى ثلاثين اسرة تبدأ بالملك مينا وتنتهى بعصر الاسكندر الاكبر .

ولقد نقل البابليون (الأكاديون والعموريون) الذين خلفوا السومريين في حكم هذه البلاد (٢٥٠٠ ق٠م تقريبا) ، الكتابة عنهم وسجلوا تاريخهم،ومن أعظم ما سجله هؤلاء البابليون قوانين مليكهم الشهير "حمورابى" (٢٠٠٠ ق ٠ م تقريبا) أعظم ملوك بابل (والذى هاجر على عهده سيدنا ابراهيم الخليل من العراق) . ولقد سجلت هذه القوانين على لوح حجرى يبلغ ارتفاعه مترين ونصف المتر تقريبا . وهذه القوانين تأتى على قمة الكتابات السومرية وتشيد الى مدى تحضر وتقدم هذه البلاد آنذاك .

كذلك سجل الأشوريون ، الذين خلفوا البابليين فى حكم شمال العراق — تاريخهم . وكان الأشوريون قد نجحوا فى الاستيلاء على كل العراق (حوالى ١١٠٠ ق٠م) وبقيت لها السيادة عليها لعدة قرون . ولقد اشتق السومريون اسمهم من اسم "آشور" وهو عشتر" أو "عشتار" أقدم آلهتهم ، وأطلقوه ايضا على أكبرمدنهم.

وقد ظهر لنا من مخلفات الأشوريين أن مليكهم الشهير "أشوربانيبال" — (٦٦٨-٦٢٦ ق٠م) لم يكن فاتحا غازيا فحسب ، بل كان عالما قارئا وأنه كانت له مكتبة خاصة ، تضمنت ضمن محتوياتها عشرين ألف لوح سجل عليها أمجاده. ولقد اهتم هذا الملك بتسجيل تاريخه بنفسه ، كذلك تسجيل أهم أعماله وأهم أعمال أجداده ، ولذلك فإنا نعتبر آشوربانيبال ملكا مؤرخا .

ولقد أمدتنا الكتابات التى وردت على ألواح هذا الملك بمعلومات تاريخيه هامه عن أهم الأحداث التى جرت فى عهد ملوك بابل وآشور كذلك زودتنا هذه الألواح بمادة تشبه التاريخ وصورت لنا طبيعة العلاقات التى كانت قائمه بين بابل واشور لعدة قرون ، وعكست لنا صورة طبيعية عن صيغة المعاهدات والاتفاقات التى أبرمت بينهما .

وكانت نهاية دولة دولة بابل على يد الفرس ، وذلك حين احتل مليكهم العظيم "قورش" Cyrus مدينة بابل العاصمة سنة ٥٣٨ ق ٠م ولا يهمنا فى هذا المقام ذكر تاريخ فارس بقدر ما يهمنا اظهار أن ملوك فارس اهتموا ايضا

بتسجيل تاريخهم وبخاصة مليكهم العظيم "دارا" Darius . ولقد خلّف لنا ملوك الفرس وثائق ملكية هامة أفادت التاريخ كثيرا . وقد جمع بيروسوس Berossos (١) ، وهو كاهن بابلي ، المخلفات البابلية الآشورية الفارسية في كتاب أصدره حوالي سنة ٢٨٠ ق.م وأطلق عليه اسم "بابل" Babylonica . ولقد بدأ بيروسوس كتابه هذا بالحديث عن الطوفان ثم تبعه بقائمة أسماء ملوك ما بعد الطوفان حتى الملك البابلي الشهير "نبوخذ نصر" ويعد كتابه في جملته ، مادة هامة لتاريخ دول بابل وأشور وميديا ، نظرا لما ورد به من معلومات استمدها من مصادرها الأصلية القديمة .

وقبل ظهور كتاب بيروسوس بزمن طويل ، حوالي سنة ٩٠٠ ق.م دُون في بيئة الشرق الأوسط هذه ، الصحيفة القدم ، تاريخا دينيا مازال شاغلا للأذهان حتى الآن نظرا لخطورته وعلو مقامه ، ذاك هو كتاب العهد القديم (التوراة) .

(ج) العهد القديم (التوراة) كمصدر تاريخي :

التوراة كلمة عبرانية (يهودية) تعني الشريعة او الناموس عند اليهود ، وهي تسمية تطلق على كتب تاريخيه دينية عرفت بكتاب العهد القديم وعرفت أيضا بالأسفار الخمسة ، يقول اليهود أن نبيهم موسى بن عمران هو الذي كتبها بوحي من ربه حوالي سنة ٩٠٠ ق.م (١) . وتغطي هذه الأسفار الخمسة ، التي تنسب الى موسى ، فترة من التاريخ تبدأ من بدء الخليقة وتنتهي بوفاة موسى على جبل "نبو" في شرق الأردن (٢) .

---

(١) Shotwell: Op. cit., p. 101.

(٢) ترجح المصادر وفاة النبي موسى حوالي سنة ١٢٠٠ (ق.م) اى قبل كتابة التوراة الموجودة حاليا بيد اليهود بحوالي ثلاثة قرون ، مما يرجح ضياع التوراة الاصلية التي نزلت على النبي موسى .

وتشتمل الأسفار الخمسة علـــى :

(١) سفر التكوين (بدء الخلق) ، (٢) سفر الخروج ، (٣) سفـــر اللاويين ، (٤) سفر العـدد ، (٥) سفر تثنية الاشتراع . ويقع سفـــر التكوين فى خمسين فصل (اصحاح) ، ويبدأ بخلق العالم وسرد تاريخ أنبيـــاء بنى اسرائيل حتى قصة النبى يوسف واستقراره فى مصر فى عهد فرعونها "تحتمـس الثالث" ولحاق والده يعقوب واخوة يوسف الأحد عشرة به واستقرارهم فى مصـــر فى الفترة ما بين ١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م.

أما سفر الخروج فيقع فى أربعين اصحاح ، يبدأ الحديث فيه بتكملة مـــا انتهى عنده سفر التكوين ، ويتحدث عن اضطهاد ملوك مصر لبنى اسرائيل . كمـــا تتحدث عن ولادة النبى موسى وحياته حتى نزول الوحى عليه وخروجه من مصر مـــع عدد من أتباعه فى عهد الملك منفتاح أو مرنبتاح (حوالى ١٢٣٥-١٢١٢ ق . م) ويستمر هذا السفر فى سرد تاريخ موسى حتى تلقيه الوصايا العشر ووفاته حوالـــى سنة ١٢٠٠ ق.م.

وينتسب السفر الثالث ، وهو سفر اللاويين الى لاوى أو ليفى بن يعقـــوب وسبطه ، وهى القبيلة التى ينتسب اليها موسى وأخوه هارون والتى جاء منهـــا كل الكهان والأحبار وذلك حسب اشتراط التوراة لهذا الأمر . ويقع هذا السفـــر فى ٢٧ إصحاح ، وفيه يتوقف سرد بقية تاريخ المسيرة الاسرائيلية مع موسى عـــبر صحراء سيناء . وهو لا يحتوى الا على التعاليم الخاصة بالحياة الدينية فى التشريـــع اليهودى فحســـب .

ويقع السفر الرابع ، وهو سفر العدد فى ٢٦ اصحاح ، وهو يحتوى علـــى تعداد دقيق للقبائل العبرية التى خرجت من سيناء الى فلسطين بعد وفاة موسى وبعد قضاء فترة التيه فى الصحراء .

أما السفر الأخير ، وهو سفر تثنية الاشتراع ، ومعناه اعادة الشريعـــــة

وتكرارها على بنى اسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء ووصولهم الى سهل النقب وجنوب الارد ن فى صحراء سواب ، وينهى هذا السفر التوراة التى ينسبها اليهود الى النبى موسى ، والتى تعد من أقدم التواريخ العبرية المعروفة .

ولقد ضم الى هذه الأسفار الخمسة سفرين آخرين وهما سفر يسوع وسفر صموئيل .

ويحتوى العهد القديم ، الى جانب التوراة التى ينسبها اليهود الى النبى موسى ، على كتب الأنبياء والقضاة والملوك والمزامير والأناشيد . ويتضمن هذا القسم من العهد القديم تاريخا هاما يشمل الأحداث التى وقعت للعبرانيين بعد وفاة موسى منذ دخولهم أرض فلسطين بقيادة " يوشع بن نون" خادم النبى موسى وخليفته فى قيادة شعب اسرائيل الى (أرض الميعاد) كما يزعمون ، وحتى خروجهم منها فى السبى البابلى (١) سنة ٥٣٧ ق.م. وعلى هذا فان ذلك القسم يغطى مسيرة تاريخية عمرها سبعمائة عام تقريبا (من ١٢٠٠ ق.م - ٥٣٧ ق.م) .

وتنقسم كتب الأنبياء الى قسمين : الأنبياء الأُول والأنبياء الأُخر . وينقسم الأنبياء الأُول الى أربعة أسفار هى :

يوشع ، القضاة ، صموئيل ، والملوك .

وينقسم الأنبياء الأُخر أيضا الى أربعة أسفار هى :

أشعيا ، أرميا ، حزقيال ، والأنبياء الصغار (١٢ نبى) .

---

(١) وقع هذا السبى على اليهود على يد الامبراطور البابلى " نبوخذ نصر" حين اجتاح مملكتهم التى أقاموها فى فلسطين ، وكان ذلك فى سنة ٥٣٧ ق.م. وسمى هذا السبى بالبابلى ، لأن هذا الملك البابلى اقتاد اليهود أسارى الى مدينة بابل حيث ظلوا هنالك حتى أطلق سراحهم وفك اسرهم ملوك الفرس حين اجتاحوا ملك البابليين .

ويطلق المسيحيون لفظة التوراة على جميع الكتب التي يسمونها العهد القديم وهي تشتمل على التوراة المزعوم نسبتها الى موسى ، وكتب الأنبياء ، وتاريخ قضاة بني اسرائيل وملوكهم قبل المسيح .

أما التوراة في عرف القرآن فهي ما نزل من الوحي على النبي موسى ليبلغه قومه مصدقا لما نزل في القرآن . (كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا التوراة فاتلوها ان كنتم صادقين)[1]. (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله)[2]. (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)[3] . (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)[4] . (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم)[5]. (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[6] .

وعند مؤرخي العرب أن بني اسرائيل قد فسدوا بعد موسى وأضاعوا التوراة التي نزلت عليه ثم كتبوا غيرها . (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)[7] .

---

(١) آل عمران ٩٣.
(٢) المائدة ٤٣.
(٣) المائدة ٤٤.
(٤) البقرة ٨٩.
(٥) البقرة ٩١.
(٦) البقرة ١٠١.
(٧) البقرة ٧٩.

ويرى بعض هؤلاء المؤرخين أن التوراة الحالية التى فى يد اليهود كتبت على عهد الكاهن عزرا (النبى عزيز) باذن من ملك الفرس ارتحشتا الذى أذن لهم فى العودة الى فلسطين بعد فكه سبيهم فى بابل الذى وقع عليهم على يد الملك البابلى نبوخذ نصر . وعلى هذا يذهب هؤلاء المؤرخون الى أن جميع أسفار التوراة التى فى حوزة اليهود والنصارى قد كتبت بعد السبى البابلى (أى بعد سنة ٥٣٧ ق م) ، ومما يؤكد ذلك كثرة الألفاظ البابلية الواردة فيها والتى جاءتهم من اختلاطهم بالشعب البابلى فى بلاد العراق خلال الأسر .

هذا وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقدان توراة موسى ، التى هى أصل ديانة بنى اسرائيل الأصلية وأساسها . والمرجح أنها فقدت أثناء تهدم الهيكل المقدس الذى كان قد بناه النبى سليمان فى السنة الرابعة من ملكه (١) . وعلى هذا فان التوراة الحالية ، فى نظر مؤرخى العرب وبعض المؤرخين المسيحيين ، تاريخ لم يكتبه موسى وانما كتبه عدد من أحبار اليهود الغير معروفين ، كتبوه على التعاقب معتمدين فى سردها على روايات سماعية سمعوها خلال السبى البابلى وقبله .

وفى التوراة ، من بين أشياء كثيرة ، نجد تاريخا استهدف واضعوه خلال القرون السحيقة التدليل باستمرار على المقدرات الالهية فى حياة شعب بنى اسرائيل (٢) (شعب الله المختار ، كما أطلقوا على أنفسهم) . ولقد سرد كتاب التوراة الوقائع وأوردوا الخوارق والتداخلات الالهية المباشرة فى سير الأحداث وجمعوا فيها قصصا متلاصقا لم يراع فى جمعها النظام والانسجام .

ورغم ذلك ، فان ما يعنينا فى هذا المقام ، هو القول بأن كتاب التوراة يتحدث فى موضوعه ويحتوى على قدر كبير من التاريخ الدينى ومن الأساطير ، وهى لا تختلف عن شبيهاتها من القصص والحكايات التى وجدت فى بلاد الرافدين وعلى أرض النيل

---

(١) جاء وصف هذا الهيكل فى سفر الملوك الأول ، الاصحاح السادس ـ ١٠ .

(٢) هورس : قيمة التاريخ ، ص ٢١ .

فى نفس الفترة المعاصرة لزمن التوراة . وفى هذه القصص والحكايات التاريخية التى تعكس سيطرة الآلهة بوضوح على أحداثها ، يختلف اليهود عن قرنائهم فى تحديد الآلهة التى تُسير هذه الأحداث ويعتقدون أن الههم " يهوا " هو الوحيد المسير لها والمسيطر على سيرة كل البشرية .

(٢) التاريخ عند شعب اليونان (الأغريق) :

تبدأ كتابة التاريخ بالمعنى الحقيقى لمفهوم الكلمة عند اليونان ، ولقد أطلق اليونانيون على هذا العلم اسم " التاريخ " ، وكلمة تاريخ التى جاءتنا منهم منذ القرن السادس قبل الميلاد كانت لا تعنى عندهم مجرد سرد الحكاية ، ولكن عنت البحث عن المعرفة وعن الحقيقة ، وكان مؤرخو اليونان ناقدين باحثين مدققين(١).

وظهر التاريخ عند شعب اليونان فى ملاحمهم التى دونوها ، وكان هوميروس صاحب الالياذة التى تحكى عن حرب طروادة ، هو رائد هذه الملاحم. وتصل الأهمية التاريخيه لأشعار هوميروس عند اليونان الى نفس القدر من القداسة الذى تصل فيه التوراة عند اليهود . ولقد ظلت سيطرة هذه الأشعار على أذهانهم حتى عهد ازدهار دولتهم فى العهد الجمهورى (٢) .

ولقد أخذ مؤرخو اليونان عن هوميروس تمجيد البطولة وتقديس روح النضال الذى يدفع الانسان الى التفوق عن من حوله ، بل الى الارتفاع الى قمة المجد والعظمة(٣) كذلك أخذوا عنه تدخل الآلهة المستمر فى أعمال البشر (٤) . وقصة التاريخ الأغريقية تتناول الحدث اكثر ما تعنى بمعناه ودوافعه على خلاف قصص التوراة . وهى تسلط النور على شخصية البطل المتميز (السوبرمان) (٥) ، وتتخذ منه مثالا كاملا للقمة التى بلغها الانسان وتجد فيه وفى الكلام عنه هدفها الأسمى . وذلك ما فعله حين اتخذت شخصية الاسكندر الاكبر (المقدونى) مثالا كاملا للقمة والعظمة التى بلغها

(١) Shotwell : Op. cit., p. 8.

(٢) Ibid, p. 163.

(٣) هورس : قيمة التاريخ ، ص ٢٣ .

(٤) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٦ .

(٥) هورس : نفس المصدر ، ص ٢٣ .

الانسان ووجدت فى الكلام عن شخصه وعظمة الهدف الأسمى . وقد سار فى هذا مؤرخو الأغريق على درب يخالف درب كتاب التوراة ، فلم يروا فى سير الحوادث اتجاها قدريا فرضته العناية الالهية ولا قدراً ورث الناس أعباءه جزاء ما قدمت أيدى أجدادهم (١) .

ولقد أوصل الأغريق أسلوب العرض والرواية ودقة التفاصيل الى درجة عالية من الاتقان والابداع الفنى ، واستعانوا فى عرضهم التاريخى بشواهد الماضى من مذكرات شخصية ومؤلفات أدبية ونقوش فنية ، كذلك طبعوا هذا العرض بالطابع الخرافى فجاءت كتاباتهم مليئة بالأساطير مغرقة فى الخيال .

ولقد عبر مؤرخو الأغريق عن هدف كتابتهم التاريخ أنه الرغبة فى الحفاظ على أعمال الرجال ومآثر الأبطال وتمجيد هذه الآثار وتخليد هذه الانجازات ، وظلت هذه الروح ملهمة لهم طوال الوقت .وقد عبّر عن ذلك هيرودوت ، أعظم مؤرخيهم بقوله عن هدف تدوينه التاريخ : "انى أدون التاريخ كى لا يطمس الزمان أعمال الرجال ، وحتى تبقى المآثر الكبرى وتخلد الانجازات الباهرة ، تلك الانجازات التى أسهم فيها اليونان ، وحتى تلك التى كانت من اسهام البرابره "(٢) .

وكان مؤرخو اليونان قليلى الاكتراث بصحة الأحداث التى يقومون بروايتها ، وكانوا يعالجون التاريخ كخطباء ويوردون على لسان أبطالهم وملوكهم وأعدائهم أقوالا وخطبا بليغة رفيعة المستوى . ولقد أورد هؤلاء المؤرخون كثيرا من الأقاصيص الوهمية داخل مؤلفاتهم التاريخية نستطيع أن نستشف منها القليل من الحقائق . يقول جوستاف لوبون فى هذا الخصوص : "ان تاريخ اليونان قد صنع من هذه الأقاصيص الوهمية المضاف اليها قدر ضئيل من الحقيقة التى جمعوها مصادفة وقدر كبير من الخيال ، صنعوا تاريخاً عدوه حقيقة وعدته الأجيال من بعدهم حقيقة وذلك بفعل قوة التكرار "(٣) . ولو استعرضنا أسماء أهم مؤرخى اليونان نجد : هيكاتيوس،

(١) هورس : المصدر السابق ، ص ٢٤.
(٢) Shotwell, Op. cit., pp. 179, 180.
(٣) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ، ص ٥٥ ، ٥٦.

هيرودوتوس ، ثوكوديدس ، وبوليبيوس .

هيكاتيوس : Hecataeus

والمؤرخ هيكاتيوس هو أول من نعرف من مؤرخي اليونان (١) ، ظهر في نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، وولد في مدينة ملطية سنة ٥٤٦ق٠م . وهو ينتمي الى ارستقراطية بلده، ويعد ظهوره ظاهرة هامة الحدوث في تاريخ الآداب والعلوم اليونانية القديمة ، كما يعد بحق من مؤسسي الكتابة التاريخية بين اليونان (٢) .

ولقد قام هيكاتيوس برحلات عديدة عبر العالم ، أكسبته خبرة كبيرة وزودته بمعلومات وافرة كانت ذخيرة له في كتاباته التاريخية.وبعد أن فرغ هيكاتيوس من تجواله وأحس بضرورة تفريغ ما استجمع من معلومات تفرغ لكتابة كتابين هامين ، روى في أحدهما أخبار رحلاته حول العالم ، وسجل في الآخر موضوعات تاريخية متفرقة ، ولقد أهمنا كتابه الثاني أكثر من الأول لما حواه هذا الكتاب من نقد لحياة أبطال الأغريق وللأمجاد والبطولات التي نسبتها الأساطير اليهم .

يقول هيكاتيوس في كتابه الثاني : " اني اكتب ما أراه حقيقة ، لأن حكايات شعبنا مليئة بالمتناقضات ، وقد بدت لي سخافات بعض مواضيعها". ولقد قدم لنا هيكاتيوس في كتابه هذا ، دراسة مقارنة بين ماهو مألوف من الحكايات وما هو واقع بالفعل ، مستفيدا بخبرته وتجربته في الترحال ، وأعطانا من واقع هذه الدراسة النقدية مادة تاريخية حقيقية . ولقد أشار هيرودوت في كتاباته الى تعلمه التاريخ من هيكاتيوس وفضل هيكاتيوس عليه في كتابة التاريخ . وهكذا نرى خيوط التاريخ قد بدت تتضح على يد هيكاتيوس بسبب ما أعمله من نقد للروايات التاريخيه على أساس تجربته في الترحال .

---

(١) هرنشـــو : علم التاريخ ، ص ٢٧.

(٢) Shotwell: Op. cit., p. 171.

هيرودوت Herodotus (٤٨٠-٤٣٠ ق٠م)

واذا كانت تباشير فجر التاريخ قد بزغت على يد هيكاتيوس ، فان شمسه قد سطعت على يد من تبعه من مؤرخي الاغريق : هيرودوت وثوكوديدس وبوليبيوس ، الذين ظلوا ، الى يومنا هذا ، أساتذة علم التاريخ وأعمدته الأولى ، وأشهر المؤرخين الذين عاصروا الامبراطورية الأثينية .

ويأتي هيرودوت في مقدمة الجميع ويعد رائد الجميع ومعلمهم الأول. وينتسب هيرودوت الى مدينة هاليكرناسوس الساحلية ، وهي احدى المدن الدورية الواقعة في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى . وترتبط حياة هيرودوت ارتباطا تاما بالأحداث التي وقعت في سنوات مجد أثينا ، وهي السنوات الستين الواقعة ما بين معركة سلاميز Salamis وبداية نهاية حرب البلبونيز (١) .

وعن حياة هيرودوت نعلم أنه ارتحل كثيرا وزار تقريبا كل بلاد العالم المعروف أيامه . ولقد استمد هيرودوت ، مثل استاذه هيكاتيوس ، ثقافته من هذا التجوال واستفاد من ملاحم شعراء هيلاس وبخاصة أشعار هوميروس . كذلك استفاد هيرودوت مما اطلع عليه من الكتابات الشرقية التي وجدت أيامه في بلاد اليونان ، وخاصة مما كتبه هيكاتيوس . وكان هيرودوت كثيرا ما يشير الى هذه الاستفادات في كتاباته وخاصة مما نقله عن أستاذه هيكاتيوس .

وفي سن الأربعين (حوالي سنة ٤٤٧ ق٠م) ترك هيرودوت مسقط رأسه وارتحل الى أثينا ليقيم في عاصمة الدنيا وقتذاك وسط دائرة من أعاظم الرجال الذين عرفهم العالم وكانوا متواجدين في بلاط الامبراطور العظيم بركليز .

وترك هيرودوت أثينا بعد أربع سنوات من المقام فيها ، وارتحل الى ايطاليا التي ظل بها ، حتى وفاته هناك ، حوالي عام ٤٣٠ ق٠م٠

---

(١) وهي الحرب الشهيرة في التاريخ والتي وقعت بين أثينا وصديقتها اللدود اسبرطة واستمرت طوال سبع وعشرون عاما (٤٣١ الى ٤٠٤ ق٠م)٠

وبظهور هيرودوت نستطيع أن نقول أن علما جديدا قد ظهر بصورة واضحة هو علم التاريخ الذى يبحث عن الحقيقة . واذا كان تعريف التاريخ الآن ، قد استقر على أنه العلم الذى يدرس الأحداث ، وأنه العلم الذى يحاول الانسان من خلال دراسة الماضى أن يفسر حقيقة ما يحدث فى الحاضر وسبب حدوثه ، فانا نجد هيرودوت يورد هذا التفسير فى مقدمة كتابه الشهير Histories . ولقد أورد هيرودوت فى مقدمة كتابه هذا ما نصه بقوله : "ان الماضى هو فعل الماضى ، وان الماضى تكمن فائدته للحاضر على أنه مرشد للمستقبل" ، ومن هنا استحق هيرودوت ، بعد فهمه معنى التاريخ ، بأن يلقب بحق "بأبى التاريخ"(١) .

ولقد فطن هيرودوت ، عن ادراك وتقدير دقيق ، أن التاريخ علم ، أو أنه من الممكن أن يكون علما ، ومن ثم لابد أن يعرض لأعمال الانسان . وفطن الى أن التاريخ لا يجب أن يكون من قبيل الأساطير وانما من قبيل البحث العلمى لأنه محاولة للاجابة عن أسئلة تتعلق بأمور يعتقد الانسان أنه يجهلها . ويعتقد هيرودوت أن التاريخ يجب أن يهتم بالجانب الانسانى وبالمشاكل التى يعانيها الانسان ، لا للجانب الدينى ولخوارق الآلهة .

ولقد اختار هيرودوت كلمة التاريخ Histories لكتابه واستحدث بذلك ثورة فى التأليف ، ذلك لأن تحويل الأساطير الى تاريخ علمى كان أمرا مجهولا بالنسبة للعقلية الاغريقية ، وبذلك فان ما أقدم عليه هيرودوت ،فى القرن الخامس قبل الميلاد ، يعد فتحا جديدا .

ولقد ذكر هيرودوت ، فى مقدمة كتابه ، أن التاريخ فى نظره هو دراسة اجتماعية تتميز عن دراسة الأساطير ، وأن هدفه هو وصف أعمال الرجال ، وأن هدفه تخليد هذه الأعمال حتى لا تنساها السلالة البشرية . ويقول هيرودوت : "ان التاريخ يخدم معرفة الانسان بحقيقة الانسان"(٢) . وهو يقصد بذلك أن التاريخ يكشف

---

(١) Myres, J.L : Herodotus, Father of History, Oxford 1953, p. 66.

(٢) هورس : قيمة التاريخ ، ص ٢٣ .

عن أعمال الانسان في الماضي ، ويكشف بالتالي السبب الذي من أجله أقدم الانسان على هذه الجهود . وبذلك لا يقف هيرودوت عند مجرد التفكير في الأحداث ، بل يخضع دراسة هذه الأحداث للتقدير الانساني والبحث ، بوصفها أحداث انسانية لها ما يبررها أو يبرر القيام بها في تفكير الانسان .

ويتألف كتاب التاريخ "لهيرودوت من تسع كتب ، تحدث في الكتاب الأول منه عن ليديا والفرس والعالم الهيليني . واقتصر الكتاب الثاني على مصر ، وتحدث في الثالث عن أصول تاريخ الفرس ، والرابع عن القصص الليبية . وتناول الخامس الحديث عن تراجيدية أثينا واسبرطة والثورة الأيونية . أما الأجزاء من السابع الى التاسع فتحدث فيه عن المعارك بين الفرس واليونان وخاصة معركة سلاميز (١) .

ويعد كتاب " هيرودوت ، أبو التاريخ " من أهم الكتب التي كتب عن هذا المؤرخ العظيم ، كتبها المؤرخ الانجليزي المعاصر مايرز (John L. Myres) والذي عرف الناس بواسطة معظم المعلومات عنه . ويجعل مايرز الموضوع التاريخي الذي ألف فيه هيرودوت بأنه قصة الصراع بين الفرس واليونان ، من الثورة الايونية سنة ٥٠٠ ق.م حتى هزيمة حملة اكسركسيز سنة ٤٨٠-٤٧٩ ق.م ، متتبعا جذور الصراع بين الشرق والغرب وقيام الامبراطورية الفارسية وسيادة أثينا واسبرطة على الدويلات اليونانية (٢) .

وكان سقراط الفيلسوف صاحب أسلوب الجدل والنقاش المستنير معاصرا لهيرودوت وصديقاً له ، ولقد استفاد هيرودوت من أرائه وأفكاره التقدمية التي انعكس صداها في كتابات هيرودوت .

ثوكوديدس : Thucydides (٤٧٠ - ٣٩٦ ق.م)

ثم يأتي من بعد هيرودوت المؤرخ اليوناني الأثيني ، الذي يحتل المرتبة الثانية بعده ، وهو ثوكوديدس ، وكان مؤرخا قديرا قادرا على صوغ القصة

(١) Myres : Herodotus, p. 66.
(٢) Myres : Op. cit., p. 60.

التاريخية . ولقد أرخ ثوكوديدس لحرب البلوبونيز الكبرى بين سكان جزر البلوبونيز والأثينيين ، وروى قصة سنوات الصراع الرهيب فى هذه الحرب التى استمرت سبع وعشرين عاما ، والتى تعتبر ، على حد تعبيره ، أعظم الحروب فى كل التاريخ وأعظم أحداث تاريخ العالم ، ولذا كرس جهوده لوصفها (١). ولقد ساعد ثوكوديدس على تفهم هذه الحروب أنه كان أحد القادة العسكريين الذين شاركوا فيها . فقد كان أحد القواد فيها ولكنه نفى بسببها مدة عشرين عاما خارج أثينا بعد أن أخفق فى هزيمة القائد براسيداس ولم يستطع أن يخلص مدينة أمفيبولس . ولقد استغل ثوكوديدس سنى النفى العشرين فى وضع كتاب عن هذه الحرب ، يعد من أهم المؤلفات التاريخيه .

ولقد كان ثوكوديدس أثينيا معتزا بانتمائه لهذه المدينة العظيمة الخالدة ، وكان خير مدافع عنها فى كتاباته . ويعد هذا المؤرخ شاهد عيان للحرب البلوبونيزية بعد أن عاش أحداثها وروى كل ما شاهده عنها وما وقع خلالها من أحداث ، وما صاحبها من خراب ودمار . واعتمد ثوكوديدس على نفس طريقة هيرودوت فى استخلاص المعرفة عن طريق التساؤل والاستفسار ، ولذلك جاء أسلوبه دقيقا وجاء ذكر الحوادث التى سردها سهلا مبسطا .

وأراد ثوكوديدس أن يغطى كل أحداث سنى هذه الحرب البلوبونيزية ، الا أنه لم يستطع ذلك ، فقد أنهى كتابه بذكر أحداث صيف ٤١١ ق.م بسبب وفاته فى هذا العام الذى سجل فيه الأسطول الاثينى نصرا خاطفا . ونستطيع أن نعرف من خلال قراءتنا للجزء الأخير من كتابه أن ثوكيد مات والقلم فى يده . وقد جاء كتابه فى ثمان مجلدات كبيرة مما دل على مدى ثقافته وعظيم معرفته .

واذا ما استعرضنا كتابه عن تاريخ حرب البلوبونيز نرى أنه بدأه بمقدمة مختصرة عن حالة بلاد اليونان منذ القدم حتى الحرب الفارسية ، وبعد ذلك توقف لينتقد هذه

---

(١) Shotwell: The History of history, p. 325.

الأحداث ويدلي فيها برأيه . ويختص الجزء الأول من كتابه بجذور هذه الحرب في التاريخ وسرد الظروف التي زجت بأثينا واسبرطة في هذه الحرب ، وفي ذات الوقت تعرض لتاريخ اثينا وعظم امبراطوريتها . وينتهي هذا الجزء بتحريض الملك بركليز لخليفته بأن يخوض الحرب ضد اسبرطة بعد أن ساءت العلاقات بينهما . وتتناول أجزاء هذا الكتاب الثاني والثالث والرابع وجزء من الخامس قصة الحرب خلال عشر سنوات منتهية بصلح نيكياس Nicias . ولقد درس ثوكيد أحداث الماضي على ضوء حاضره وقال رأيه فيها قول المؤرخ الناقد المدقق (١) .

وينتقد ثوكيد هذه الحرب بين الدولتين الشقيقتين اللدودتين في أجزاء كتابه السادس والسابع ، كما ينتقد الفظائع التي ظهرت فيها من قتل الرجال وسبي النساء والأطفال واسترقاقهم . وفي آخر أجزاء كتابه تحدث عن ثورة الاثينيين سنة ٤١١ ق.م. وجاءت شهرة ثوكوديدس من قصته عن الحملة على صقلية وسبب هذه الحرب ، ومقتطفات من أقوال بركليز الشهيرة على شرف من قتل في السنة الأولى من حرب البلوبونيز .

ويجيء تقديرنا لثوكوديدس كمؤرخ من نظرته الصادقة ورأيه الواضح للأحداث التي شاهدها وعاصرها وعبر عنها كمؤرخ محايد ، كذلك لما أورده من مادة تاريخية غنية تختص بتاريخ اليونان القديم .

واذا ما قورن ثوكوديدس بهيرودوت ، فاننا نرى ثوكيد اكثر عناية بتحقيق ما يروى وأقل ميلا للاستطراد من موضوع قصته الى تفصيلات لا علاقة لها به مثلما فعل هيرودوت . وكان ثوكيد في بعض الأحيان سطحيا في بعض أحكامه ولم ينفذ فيها الى أدق أسرار الحوادث ، على خلاف ما فعل هيرودوت أيضا . وبالغ ثوكيد في تقدير نفوذ الأفراد واكثر من ايراد الخطب على لسان أبطال روايته ، الأمر الذي لم يتوسع فيه هيرودوت . وانصرف اهتمام ثوكيد الى ابراز القوانين التي تنظم الاحداث ،

---

(١) Shotwell : Op. cit., p. 195.

بينما انصرف اهتمام هيرودوت الى سرد الأحداث نفسها . وفى الوقت الذى تميز فيه أسلوب هيرودوت بالسهولة التلقائيه وقوة الاقناع ، مال أسلوب ثوكيد الى الجفاف والاقتضاب .

المؤرخون اليونانيون ما بين ثوكوديدس وبوليبيوس :

لقد خلد اسم ثوكوديدس بعد وفاته ، وظل اسما عظيما ، ولم يظهر من بعده مؤرخون فى مثل عظمته . وبرغم وضوح منهج ثوكوديدس فى سرد أحداث التاريخ ، الا أننا نجد من جاء بعده من المؤرخين ينهجون نهجا مخالفا يعتمد أساسا على المثاليات فى سردهم التاريخى اكثر من محاولة الوصول الى الحقيقة . وظل المؤرخون على بعد من نهج ثوكيد ، ولم يعودوا الى هذا النهج الا فى القرن الأول قبل الميلاد وقت أن انتقلت السيادة السياسية من بلاد اليونان الى روما .

وبعد هيرودوت وثوكوديدس يضع الباحثون " اكسينوفون " Xenophon فى المرتبة الثالثة بين مؤرخى الاغريق العظام . ولقد عُد اكسينوفون مؤرخا عظيما رغم غلبة الفلسفة عليه ، ورغم أسلوبه الراقى الذى يضعه فى مقدمة أدباء اليونان الاقدمين ورغم خلو كتاباته من روح النقد اللازمة والضرورية للمؤرخ . ولقد سرد اكسينوفون الأحداث العسكرية سردا تاريخيا فأبدع فى ذلك ، وذلك لكونه محاربا ومراسلا عسكريا ، الا أنه لم يستطع التعمق فى مدلول هذه الأحداث ولم يدل برأيه فيها .

ولقد عاش اكسينوفون حياته منذ بدايتها معاصرا لوقائع الحروب ، فهو ولد فى بداية حرب البلوبونيز ومات حين هددت القوة المقدونية عالم الاغريق (٤٣٠-٣٥٤ق.م) . وجاءت كتاباته وصفا لهذه الحروب وتكملة لما بدأه ثوكوديدس . ولقد كتب اكسينوفون كتابين أرخا لهذه الحروب سمى احدهما : تاريخ اليونان Hellenica وسمى الآخر : "الحوليات" Analasis وحذى فى كتابتهما حذو ثوكوديدس ، مكملا سرد أحداث حرب البلوبونيز .

ولقد جاءت كتابات اكسينوفون مخالفة لكتابات ثوكوديدس فى النظرة والطريقة ، فكانت نظرته سطحية وطريقة كتابته طريقة روائية صرفة خالية من روح النقد والتحليل .

ومهما كان الأمر ، فان اكسينوفون يأتى حلقة هامة فى سلسلة دراسة علم التاريخ ومنهج التدوين التاريخى فى فترة الحياة قبل حروب الاسكندر الأكبر . ويرجع الفضل فى غزو قوات الاسكندر للشرق لكتابات اكسينوفون ، ولما أورده هذا المؤرخ ، بأسلوبه الشيق ، عن هذه البلاد من معلومات .

وتعد الفترة ما بين اكسينوفون وبوليبيوس فترة خامدة لم يظهر فيها مؤرخ بارز ، واقتصرت الكتابات التى وجدت آنذاك على ما سطره بعض أدباء اليونان الشغوفين بعلم البيان مثل :

" ايزوقراط" Isocrates الذى ولد سنة ٤٣٦ ق.م ، و "ايفوروس" Ephorus (٤٠٥-٣٣٠ق.م) ، و "ثيوبومبوس" Theopompus (حوالى ٣٧٨ ق.م.) صاحب المؤلف الضخم عن تاريخ اليونان الذى ضاع ،للأسف معظمه ، و " تيمايوس الصقلى Timaeus " .

وفى هذه الحقبة الزمنية كتب الفيلسوف اليونانى الشهير "أرسطو" كتابا بعنوان "مجتمع أثينا" The Constitution of Athens فى الفترة ما بين سنوات ٣٢٩ و ٣١٢ ق.م. ويأتى نصف هذا المؤلف (حوالى ٦٠ صفحة منه) شاملا تاريخ أثينا منذ القدم وحتى ثورات سنة ٤٠٤ ، ٤٠٣ ق.م . وجاء فى هذا الجزء وصف حالة مجتمع الأثينيين أيام أرسطو ، ويعد بذلك من المؤلفات الهامة فى تاريخ اليونان القديم .

ومما يؤسف له أننا لم نجد مؤرخا واحدا من مؤرخى اليونان يحدثنا عن العمل اليونانى السياسى الكبير وهو قيام امبراطورية الاسكندر الأكبر، ولم يأت بعد المؤرخ الأديب ثيوبومبوس الذى كتب عن تاريخ فيليب المقدونى ، والد الاسكندر ، من يكمل هذه السيرة العظيمة التى توجها الاسكندر . ويعزى سبب ذلك الى اختفاء المؤرخين اليونان

آنذاك عن مسرح التاريخ . ولذلك قدر لتاريخ هذه الحملة الكبيرة وهذا العمل العظيم الذى قام به الاسكندر ، والذى غير مجرى التاريخ ، أن يكتب على يد مؤرخى روما ، الذين كانت نظرتهم بالقطع مخالفة لنظرة الاغريق كما سوف نرى (١) .

بوليبيوس : Polybius

كان بوليبيوس نبيلاً يونانيا ، ولد فى مدينة ميجالوبوليس فى اركاديا (حوالى سنة ١٩٨ ق.م) ، وكان قد عمل سفيرا وهو مازال فى شبابه . ولقد أسر بوليبيوس بعد معركة بيدنا Pydna التى هزمت فيها روما بلاد اليونان ، وحمل اسيرا الى روما مع الآلاف من أمثاله كسجين لينتظر هنالك محاكمة لن تتم ابدا ، وليظل هنالك عبدا يرى بعينيه استبداد المستعمر . لكن لحسن حظ بوليبيوس ألحق بخدمة عائلة القائد المنتصر أميليوس باولوس Aemilius Paulus ، وبذلك لم يستقر فى روما فحسب بل استقر مع الارستقراطية الرومانية التى قدر لها أن تحكم العالم آنذاك .

ولقد وصل بوليبيوس الى قلوب هؤلاء السادة ، لا بسبب كرم محتد ، ولكن بسبب حضور ذهنه وذكائه . فلقد استطاع أن يستأثر بصداقة سكيبيو Scipio ابن القائد أميليوس وأن يجعله تلميذا مخلصا له .

وبتواجد بوليبيوس وسط مركز الأحداث ، امتلأ حماسا لكتابة تاريخ شامل لروما فترك بذلك أربعين مؤلفا فى التاريخ عن تاريخ روما تبدأ القصة فيها من أول نزول الرومان الى ايطاليا بعد عبورهم البحر فى سنة ٢٦٤ ق.م. وتسرد أحداث الحرب البونية حتى نهاية تاريخ قرطاجة وتاريخ الاغريق فى سنة ١٤٦ ق.م. وللأسف لم يصل لنا من هذه الكتب الأربعين سوى الخمسة كتب الاولى منها ، لكن باطلاعنا على هذه الكتب الخمسة استطعنا أن نأخذ صورة صادقة عن العمل كله . فيمدنا بوليبيوس فى كتبه ، كدرس ناجح ، بكل المعلومات اللازمة والتحليلات الدقيقة للأحداث مع

---

(١) انظر : فصل التاريخ عند الرومان فيما بعد .

الوصف الرائع الشيق الذى لا ينسى فيه شاردة ولا واردة . ولقد استطلع بوليبيوس فى كتاباته فجر اول امبراطورية فى حوض البحر المتوسط وكتب تاريخه ليشرح ذلك (١) وكتب بذلك بوليبيوس تاريخا قوميا لروما حين استعدت للقيام برسالتها الحضارية.

وقد قصد بوليبيوس بالتاريخ التاريخ بالمعنى الحديث من الكلمة ، أى أن الموضوع عنده هو ضرب من ضروب البحث يجب أن توضع له تسمية خاصة به. ودافع عن أحقية هذا العلم فى أن يكون موضوعا لدراسة عامة هو هدفها ، ويشير في أول عبارة من كتابه الى أن أحدا لم يفكر فى ذلك حتى هذه اللحظة ، كما يعتقد أنه الشخص الأول الذى فكر فى التاريخ على هذه الصورة وأنه نوع من التفكير له قيمته العامة (٢) .

يقول بوليبيوس : "يجب أن نستفيد من التاريخ ، لكن التاريخ يفقد عظمته ورسالته اذا كان كاذبا ويصبح مجرد أقاصيص للتسلية "(٣) . وينصح بوليبيوس كاتب وقارىء التاريخ بقوله : "على الكاتب والقارىء للتاريخ أن يوجه انتباهه الى الظروف التى سبقت الحادث أو سايرته أو لحقت به اذ أن دلالتها تفوق ما يروى عن الحادث واذا انتزعنا عن البحث التاريخى البحث عن الأسباب والأساليب والأهداف التى حركت الانسان وأهملنا دراسة النتائج التى توخاها من عمله ونسبة ما استهدف الى ما حصل عليه فلن يصبح التاريخ سوى متعة للآذان وملهاة للأذهان لا نتيجة لما يحمله مستقبل الأيام (٤) .

---

(١) Shotwell : The History of History, p. 325.

(٢) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) كولنجود : نفس المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) هـورس : قيمة التاريخ ، ص ٢٥ .

وكانت نزعة بوليبيوس العلمية أقوى من نزعة ثوكوديدس ، وكان أحد منه تفكيرا وأعدل حكما وأقل ميلا الى الأسلوب الخطابي وأشد عناية بتفسير الحاضر على ضوء الأحداث التاريخية في الماضي .

وأننا اذا قيمنا عمل بوليبيوس ، فاننا لا نهتم بتفصيلات حرب اليونان والرومان التي أوردها في كتبه ولا بنظم لوكريان Locrians أو سياسة ديوس لكن على مدى التاريخ سوف يظل منهج بوليبيوس ملهما ومصدر اشعاع للمؤرخين .

مؤرخو اليونان المتأخرون :

لم يكن اسم بوليبيوس آخر أسماء مؤرخي اليونان العظام ، فقد ظهر من بعده العديد من هؤلاء المؤرخين . ويتفاوت هؤلاء في المكانة والأهمية ، ورغم ذلك فقد كانوا معلمين للعالم الروماني ومعلمين لأجيال كثيرة . وعاش هؤلاء المؤرخين خارج وطنهم وكتبوا عن تاريخ البلاد التي عاشوا فيها والبلاد التي قاموا بزيارتها فضلا عن تاريخ دولة الرومان حاكمة العالم آنذاك . وكانت الثقافة الهيلنية قد طغت على العالم في ذلك الوقت في كل المجالات الحضارية .

ولقد اكمل المؤرخ اليوناني "بوسيدونيوس" Posidonius الذى عاش في الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، تاريخ بوليبيوس باصداره كتاب "الجغرافيا والتاريخ" ، الذى فرغ من كتابته سنة ٧٤ ق.م. وواصل فيه ذكر الأحداث بعد تلك التي سردها بوليبيوس وتوقف عند دكتاتورية "سلا" Salla سنة ٨٢ ق.م.

كذلك أكمل الجغرافي الشهير "سترابون" Strabo (٦٤ق.م-١٩م) ذكر الأحداث بعد بوليبيوس ، وكتب لنا مذكرات تاريخيه شاملة بعض أعمال الاسكندر. ولقد كان سترابون عالما جغرافيا اكثر من كونه مؤرخا ، لكن المعلومات التي قدمها في كتبه أفادت التاريخ كثيرا .

ويجيء مع سترابون زميله "ديودور الصقلي" Diodorus (٨٠-٢٩ ق.م).

وقد كتب ديودور كتابه " المكتبة التاريخية " Bibliotheca Historica في أربعين جزء ، وتجيء أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه تعرض لتواريخ شعوب مختلفة ولم يرتبط بتاريخ روما واليونان فحسب ، وكانت هذه نظرة جديدة في التاريخ .

كذلك كتب " نيقولا الدمشقي " Nicolas مائة وأربعة وأربعين كتابا في تاريخ العالم ، حذى في كتابته لها طريقة ديودور الصقلي .

ومن أواخر هؤلاء المؤرخين نرى " أبيان السكندرى Apian والذى كتب تاريخه في أربعة وعشرين كتابا أيام الأباطرة تراجان وهادريان .

(٣) التاريخ عند الرومان :

لقد أرخ كثير من المؤرخين الأغريق لروما ، وكان بوليبيوس ، كما شهدنا ، من أهم هؤلاء المؤرخين اليونانيين الذين أرخوا الروما . أما من أرخ لروما من الرومان أنفسهم فكانوا قليلي العدد وجاءوا في زمن متأخر . وأقدم هؤلاء المؤرخين الذين نسمع عنهم هو " فابيوس پكيتور " Fabius Pictor الذى ذاعت شهرته عام ٢٢٥ ق.م. ، وكتب باليونانية سجلا لتاريخ روما منذ " اينياس " Aeinias حتى عهده (١) .

وقد ظل المؤرخون الرومان ، وقتا طويلا ، يكتبون تاريخ روما اللاتينية باللغة اليونانية حتى ظهور المؤرخ الروماني الشهير " ماركوس بروكيوس كاتو " Marcus Procius Cato ، في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد . فلقد وضع هذا الخطيب الروماني أول كتاب باللغة اللاتينية عن تاريخ روما ، حوالى سنة ١٦٠ ق.م. وهو كتاب الأصول " الذى يتناول أصل المدن الايطاليه وتاريخ روما منذ ملوكها السبعة وحتى سنة ١٤٩ ق.م. ولقد فقد للأسف كل هذا الكتاب ولم يصل الينا شيء منه .

---

(١) سيد الناصرى : تاريخ وحضارة الرومان ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٤٣٠

وبعد كاتو يظهر لنا من مؤرخي الرومان : فارو ، يوليوس قيصر ، سالست ، ليفي ، وتاكيتوس وهم أشهر مؤرخي الرومان . ويدين المؤرخون الرومان للاغريق فى تعلمهم التاريخ ، وان كانوا قد أثبتوا ابتكارا خاصا بهم ، وهو توجيههم تفكيرهم التاريخي بعيدا عن الخيال واستخراجهم الحوادث التاريخية من المجرى التسلسلي العام للوقائع . كذلك اهتمامهم بايجاد سجلات رسمية ، بعد نشأة روما بوقت قصير ، تعنى هيئات دينية بحفظها . كذلك اختيار هؤلاء المؤرخين تواريخا لأحداث هامة اعتبروها أعيادا لهم احتفلوا بها بكل مظاهر العظمة والأبهة . وعلى أساس السجلات التى أوجدها الرومان كتبت الحوليات أولا ، ثمّ دونت الأحداث يوما بيوم دون أى ارتباط بينها . ومن هذه الأحداث دونوا الانتصارات والهزائم وتواريخ تعيين الحكام وأوقات ظهور المعجزات وسن المراسيم الدينية والسياسية . وظلت روما عند مؤرخي الرومان هي المحور الأساسي لكل تاريخ عندهم (١) . وعن الرومان أخذ العالم عادة تدوين الحوادث فى نطاقها السياسي ، وابتداءً من عهدهم اعتبر المؤرخ نفسه مؤديا لوظيفة وطنية وهاديا أمته الى أمجادها والى كنوز حكمتها ، وكان من أثر الملاحم الاغريقية فى الرومان أن مؤرخيها اقتصروا فى تاريخهم على ذكر العظماء واهملوا الجماهير الغارقة فى همومها ومشاكلها (٢) .

" ڤارو " Vafro

ولد ڤارو سنة ١١٦ ق.م. ، وهو يسبق الخطيب الروماني الشهير "شيشرون" Cicero فى ميلاده بعشر سنوات . ولقد عاش ڤارو حياة طويلة مليئة بطلب العلم والعمل السياسي . ولقد ترك ڤارو حوالى خمس وسبعين عملا فيما يزيد عن الستمائة كتاب ولكن للأسف فان غالبية هذه الأعمال لا يستند فيها ڤارو الى روح النقد التاريخي ولا يرجع فيها الى الوثائق التاريخية الأصليه . وجاءت كتابات ڤارو مشابهة لكتابات صديقه شيشرون ، مليئة بالكلمات الطنانه والمعاني الرنانة ، اكثر من

---

(١) هورس : قيمة التاريخ ، ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩.

عنايتها بالحقيقة التاريخيه . وأهم كتاب تاريخي تركه لنا فارو هو كتابه "الآثار الرومانية" Roman Antiquities ، الذى اصدره سنة ٤٧ق٠م٠ ، والذى من الممكن أن نلمس فيه روح المؤرخ الحقيقى .

"يوليوس قيصر" Julius Caesar

يعد الامبراطور الرومانى يوليوس قيصر ، دكتاتور روما ، وآخر أباطرة العصر الجمهورى (١) فى عداد المؤرخين الرومان . ويعطينا كتابه "الحرب الغالية" الذى اخرجه سنة ٥١ق٠م٠ صورة ناطقة رائعة للمعارك التى خاضها هذا الامبراطور لضم اقليم جديد الى الامبراطورية الرومانية ولمد الحضارة اللاتينية من بحر الروم الى المحيط الأطلسى .

كذلك جاءت مذكرات قيصر الحربية التى اطلق عليها "التفسيرات" — Commentaries بأسلوبها السلس الواضح ، ضمن عداد القصص التاريخى وأعطتنا سيرة شخصية واضحة لحياة هذا القيصر العظيم ، الذى انتهى لسوء الحظ ، نهاية دامية ، حين اغتاله قواده سنة ٤٤ ق٠م٠ وبرغم ما فى هذه المذكرات من نفحات تاريخيه ، الا أننا لا نستطيع أن نعتبرها كتابا تاريخيا كاملا ، وذلك لافتقادها أسلوب النقد التاريخى .

"سالست" Gaius Sallustius

وبعد مقتل يوليوس قيصر بوقت قصير ، ظهر المؤرخ الرومانى الشهير "جايوس سالستوس" ، والذى اختصر اسمه وعرف باسم "سالست" (٨٦-٣٦ق٠م) . ولقد كان سالست من أتباع يوليوس قيصر ، وتفرغ بعد الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل قيصر

---

(١) تولى قيصر حكم الادارة الرومانية كدكتاتور وبسلطات مطلقة من ٢٨ يوليو عام ٤٦ ق٠م حتى الخامس عشر من شهر مارس عام ٤٤ق٠م وهو يوم مصرعه .

(سيد الناصرى : تاريخ وحضارة الرومان ، ص ٣٧٤) .

وتأسيس حكم " أغسطس " ، وكرس نفسه للكتابة عن الأحداث التى وقعت فى روما قبل اعتزاله الحياة السياسية .

ولقد وصل الى أيدينا عملين تاريخين من أعمال سالست هما :
" كاتيلين " Catiline و " الحرب المدمرة " Juggenaut war
وفى هذين الكتابين يحلل سالست الأحداث التى شهدتها روما نهاية العهد — الجمهورى وعاينها وعاشها تحليل المؤرخ البارع . ولكن يؤخذ على سالست الميل الى السطحية والعمومية فى كتاباته ، رغم براعته فى تصويره للشخصيات التى بدت وكأنها مرسومة بريشة فنان بارع . وهنالك أيضا نقطتى ضعف فى كتابات سالست وهما : قلة علمه بالتقويم والجغرافيا ، وقلة تعمقه فى مشاكل شعب عصره ، وذلك لحياة الترف التى عاشها كرجل بورجوازى ، الأمر الذى لم يسبغ عليه عمق العالم الباحث المدقق .

ليفى : Titus Livius

ولد تيتوس ليفيوس ، الذى عرفه الأوربيون باسم " ليفى " Livy فى بلدة " بادوا " Padua سنة ٥٩ ق.م. ، وتوفى سنة ١٧ م ، وقضى معظم حياته فى روما بعد أن ارتحل اليها عند نهاية الحرب الأهلية التى اتقدت فى نهاية عصر الجمهورية وخلال فترة العنف التى عمت البلاد من جراء هذه الحرب .

ولقد كتب ليفى تاريخه بتوجيه من أغسطس قيصر ، وأسماه : " منذ تأسيس المدينة " Ab Urbe Condita ، وأرجع هذا التأسيس الى سنة ٧٥٣ق.م ، على يد " روميلوس " Romulus ابن رب الحرب " مارس " Mars

واعتبر ليفى أن تاريخ روما كله تاريخ حربى ، وأن روما خاضت معاركها الحربية وانتصرت فيها وسادت العالم . ولقد كانت مهمة ليفى كلها هى الجمع بين السجلات التقليدية التى احتوت المراحل الأولى من تاريخ هذه المدينة العريقة ودمجها كلها فى مؤلف واحد يستطرد فى تفصيل تاريخها . وكان هذا هو المجهود الأول من نوعه

بالنسبة لتاريخ روما ، لأن الرومان اعتقدوا أن تاريخهم وحده هو الخليق والجدير بالتدوين ، ذلك لأنهم كانوا واثقين من سموهم على جميع الشعوب الأخرى، وأنهم قد حظوا وحدهم بالفضائل والشمائل التى تستحق نسبتهم الى هذه المدينة الخالدة . ومن ثم نجد أن تاريخ روما ، بالطريقة التى رواها ليفى ، لم تكن فى نظر العقلية الرومانية مجرد تاريخ من مجموع تواريخ أخرى يمكن أن يدون داخل اطار محدد معين ، وانما كان فى نظرهم هو التاريخ العام وتاريخ العالم بأسره .

وبهذا العمل العظيم يجئ ليفى على رأس قائمة المؤرخين الرومان ، بل يعد مؤرخ روما القومى دون منازع (١) . وهو المؤرخ الوحيد الذى قدم للعالم بنجاح قصة الحرب والسياسة الطويلة لروما منذ تأسيسها حتى عهد الامبراطورية وكانت حياة هذا المؤرخ وصلة بين الجمهورية والامبراطورية ، أو همزة الوصل بين العصرين الوثنى والمسيحى (٢) .

وحين ننظر الى الناحية النقدية فى تاريخ ليفى ، نجد أن نقطة الضعف فيه هى أسلوبه الروائى ، وعدم غوصه فى أعماق مصادره وعدم وقوفه موقف المحايد من مادة دراسته . فهو أخذ من هذه المصادر المادة التى تحقق أهدافه وتتماشى مع غرضه ، وهو اظهار عظمة روما . لذلك نراه يبالغ فى انطباعه العاطفى مع مدينة روما فى بعض أجزاء كتابه وبخاصة فى الجزء السادس منه ، والذى يتحدث فيه عن حرق الغال لروما . وعذر ليفى فى هذه النقطة أنه كتب كتابه بدافع من وطنيته واستجابة لحبه لمدينته التى رأى فى تاريخها تاريخ العالم كله .

ولقد ظل كتاب ليفى عن روما الكتاب الوحيد المعبر عن تاريخ هذه المدينة العظيمة حتى عصر المؤرخ "نيبوهر" Niebuhr فى القرن التاسع عشر . ولقد حمل ليفى فى كتابه فكرة مسيرة روما التاريخيه المحتومة كمركز اشعاع للعالم الغربى عبر قرون ظلمته ، وربط الماضى بالحاضر بالمستقبل فى تجانس راق رفيع . ومن

---

(١) Shotwell : The History of History, p. 291.

(٢) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٣٥ .

ناحية الاحساس فان كتابة ليفى تعد انعكاسا لعظمة عصر الكاتب فى التاريخ . وفى الحقيقة لقد كانت روما تعكس عظمتها على العالم كله آنذاك ، وهذا ما عبر عنه ليفى بصدق فى كتابه .

ومهما قيل عن ليفى وعن طريقته فى كتابة التاريخ ، ومهما وجه اليه من نقد ، فان ذلك لن يؤثر فى مكانته كواحد من أولئك المؤرخين القلة الذين ظلت أعمالهم خالدة حتى الآن .

" تاكيتوس " Tacitus

هو كورنيليوس تاكيتوس Cornelius Tacitus ولد حوالى ٥٤ م وتوفى سنة ١١٨ م . عمل تاكيتوس قنصلا ، وتزوج من أبنة القائد الرومانى الشهير أجريكولا Agricola فاتح شمال بريطانيا . ولقد ساعده عمله وزواجه من ابنة القائد الرومانى على كثرة التردد على البلاط الامبراطورى والتزود بالمعلومات اللازمة لكتبه التاريخية التى كتبها . ويعد تاكيتوس من اكبر مؤرخى الرومان وأشهرهم على الاطلاق من حيث اللغة والبيان (١) . وجاء ظهور تاكيتوس بعد وفاة ليفى بقرن على وجه التقريب ، وان ما بين ليفى وتاكيتوس لهو مشابه لما بين هيرودوت وثوكوديدس (٢) . ولقد عاصر تاكيتوس المؤرخ الجغرافى الشهير " بلينى " Pliny وكان صديقا له .

وأهم كتب تاكيتوس التاريخيه ثلاثة هى : " حياة أجريكولا " ، و " المانيا " Germania ، وكتابه " التاريخ " Histories الذى أصدره سنة ١٠٥ ميلادية .

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٣٦ .

(٢) Shotwell : The History of History, p. 301.

وكان تاكيتوس أخلاقى النزعة اكثر منه مؤرخا علميا ، ذلك لأنه اتخذ من التاريخ سوطا صبه على المجان المنحلين الذين كانوا يتقلدون مناصب الدولة الكبرى فى عهد الأباطرة الطغاة " تيبريوس " و " نيرون " كذلك فان نظرة تاكيتوس الى التاريخ لم تكن نظرة موحدة مترابطة ، ذلك لأنه لم ينظر أبدا للتاريخ على اعتبار أنه كل موحد ، بل نظر للتاريخ على أنه وحدات منفصلة . ولقد فاض فى كتابته فى اظهار هذا الانطباع فى تفصيلات طويلة أوردها فى كتبه ، ولم يفكر أبدا فى ربط الأحداث التاريخيه ببعضها والربط بينها ودراسة مسبباتها ونتائجها . ولكن رغم الافتقادات التى وجهت لتاكيتوس فاننا نرى كثيرا من التاريخ وكثيرا من المادة التاريخيه فى كتاباته مما يعد زادا طيبا لعلم التاريخ .

المؤرخون الرومان بعد تاكيتوس :

ولقد جاء بعد تاكيتوس عدد من مؤرخى الرومان الأقل شهرة ، مثل " سويتونيوس " Suetonius Tranquillus (٧٥-١٥٠م) ، و " ماريوس ماكسيموس Marius Maximus (١٦٥-٢٣٠م) ، و " أمينيوس مارسيلينيوس " Ammianus Marcellinus (٣٣٠-٤٠٠م) .

ولقد نهج هؤلاء المؤرخون نهج تاكيتوس وساروا على دربه [1] . ولم يستطع هؤلاء المؤرخون المتعاقبون فى عهد الامبراطورية الرومانية التغلب على العقبات التى اصطدم بها كل من ليفى وتاكيتوس . وبتقادم العهد الامبراطورى اقتنع المؤرخون الرومان واكتفوا بمجرد جمع المعلومات ، أى جمع المادة التى عثروا عليها فى الكتب القديمة جمعا لا يعرف روح النقد والتحليل .

وبذلك نرى أن تدوين التاريخ عند اليونان والرومان قد التزم بخاصية هامة هى العرض للتاريخ بوصفه دراسة اجتماعية . وماهو عندهم الا قصص يعرض لحياة الانسان ولما قام به من جهود وما استهدف من اغراض وما أصاب من نجاح أو اخفاق . وهم يسلمون بوجود قوة قدسية ولكنها ذات وظيفة محدودة وثبت لهم أن الشخصية الانسانية هى وراء صنع الأحداث التاريخيه كلها .

(1) Ibid, p. 320.

الفصل الثالث

التاريخ في العصور الوسطى
ومنهج تدوينه

أ) علم التاريخ عند الاوربيين المسيحيين :

تطلق تسمية العصور الوسطى ، على وجه التقريب ، على الفترة الممتدة مابين مطلع القرن الخامس الميلادى والقرن الخامس عشر ، اى على فترة طولها الف عام تقريبا على مدى عمر التاريخ •

ولقد عرف التاريخ فى هذه الفترة بالتاريخ الوسيط ، لأن أحداثه تقع فى موقع وسط بين التاريخين القديم والحديث • وقد اعتبر معظم المؤرخين حادث الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية من قبل الأباطرة الرومان فى نهاية القرن الرابع الميلادى وبداية الخامس حدثا هاما يجب أن تؤرخ به بداية هذه الحقبة من عمر الزمن ، كما اعتبر هؤلاء المؤرخون حادث نهاية الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وسقوط عاصمتها القسطنطينية فى يد المسلمين الأتراك سنة ١٤٥٣ نهاية لهذه العصور وبداية للتاريخ الحديث لما استتبع العالم من تغيرات خطيرة نتيجة هذا الحدث الكبير •

كذلك شهدت هذه العصور انتشار المسيحية فى العالم الرومانى والاعتراف بها كديانة رسمية وحيدة للدولة ، كذلك شهدت هذه العصور بزوغ شمس الاسلام وانتشار النور المحمدى فى الآفاق وقيام امبراطورية عربية اسلامية امتدت حدودها من المحيط غربا الى حدود الصين شرقا • وفى الوقت الذى عرفت فيه هذه العصور ظلام الجهالة فى أوربا بين شعوبها الجرمان وغيرهم ، عرفت ايضا الحضارة الاسلامية الزاهرة التى كانت تشع اضواؤها من مراكز الاسلام آنذاك فى بغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وقرطبه وغيرهما •

وعند تناولنا الحديث عن التاريخ ومنهج تدوينه فى العصور الوسطى سنرى ان تواجد الديانتين السماويتين : المسيحية والاسلام وانتشارهما فى العالم آنذاك كان له التأثير الأكبر فى منهج التاريخ فى تلك الفترة فى كل من بلاد الغرب

المسيحي وبلاد الشرق الاسلامي ٠

ومما يجدر الاشارة اليه أن مؤرخي اليونان المتأخرين ومؤرخي الرومان لم يعبأوا بظهور المسيحية ولم يهتموا بانتشارها ، فلم يشر اى منهم فى كتاباته الى هذا الأمر او يتعرض له ٠ واذا ما تصفحنا ما كتبه تاكيتوس نجد أنه لم يشر الى هذا الأمر الا فى عبارة طارئة وجملة عرضية عند حديثه عن تاريخ الوثنيين ٠ كذلك نجد بلوتارخ يكتب عن كل أبطال الوثنية ٠ ولم يظهر لنا بلوتارخ آخر يكتب عن ابطال المسيحية قبل مضى ثلاث قرون على ظهور هذه الديانة ، وذلك حين كتب لنا الاب " جيروم " (1) ثلاث او اربع فقرات عن الاناجيل ٠

واذا ما تساءلنا عن سر ذلك التأخير فى الكتابة عن المسيحية فانا نرى لذلك اسبابا عدة : اولها ، فى المقام الأول ، ظهور المسيحية فى السر واعتناق عامة الشعب والبسطاء والأميين لها ٠ ثانيا : تصدى المؤرخين الوثنيين لكتابة التاريخ وقت ظهور المسيحية وطوال قرونها الثلاثة الأولى ، لذلك لم يهتموا بهذا الأمر ٠ وعلى العموم فان العالم اليونانى الرومانى لم يشغل نفسه على الاطلاق لا بتاريخ اليهود ولا بتاريخ المسيحيين (2) ٠

المسيحية والتاريخ :

خضعت فكرة التاريخ فى أوربا فى العصور الوسطى لتكييف جديد جاء نتيجة لما استحدثه التفكير المسيحى من انقلاب ٠ فلقد استحدثت المسيحية فكرتين من الأفكار الرئيسية فى كتابة التاريخ عند الاغريق والرومان : أولهما فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية ، وثانيهما فكرة تقول بوجود قيم أبدية تكمن وراء عملية التغيير التاريخية ٠

---

(1) يسمى جيروم باسم هيرونيموس Hieronymus وقد ولد فى مدينة على ضفاف دلماشيا سنة ٣٤٠م ، وتوفى سنة ٤٢٠ م٠

(2) Shotwell : Op. Cit., p. 326.

ولقد بدّلت المسيحية الفكر البشرى تبديلا بلغ من عقه ما قلب الأوضاع الرومانية ومنها منهاج التاريخ • ولقد كانت الثقافة الاغريقية اللاتينية آخذه فى الأفول فحملت لها المسيحية ثروة جديدة من القصص والأحداث والمواعظ والأمثال المستقاه من كتاب العهد • ولقد شغف آباء الكنيسة أنفسهم بدراسة هذا التراث الروحى وكتبوا بعد ذلك تاريخا للبشرية طابعه مميز ومختلف عما كتبه الاغريق والرومان •

ولقد أثرت الأفكار المسيحية على فكرة التاريخ فى ثلاثه اتجاهات وهى :

أولا — ظهور رأى جديد فى التاريخ مفاده أن نشاط الأحداث ليس من صنع الانسان ولا هو مصدر رغبته وانما هو اقرار للمشيئة الالهية [1] • فلقد تضمنت المعايير الأخلاقية التى أعربت عنها المسيحية عنصرا من أهم العناصر التى استند عليها وهو أن الانسان يتخبط فيما يأتيه من أعمال أو فيما يقوم به من نشاط وليس هذا عن عجز منه او قصر فى نظره ، وانما ذلك مرده الى طبيعته كانسان • ونجد استنادا الى هذه النظرية ، أن أعمال الانسان لا ترجع الى ما أودعه من قوة الارادة والعقل وانما ترجع الى شئ خارج عنه يدفعه الى تحقيق أهداف يرى أنها خليقة بنشاطه • ويكون مسلكه ، من وجهة نظر مؤرخ العصور الوسطى ، ليس فعل نشاطه ، وانما تنفيذا لمشيئة الله وارادته •

ثانيا — أن طبيعة الحياة التغير والتبديل وأنه لاثبات الا لله وأن ما كان من خلق الله فان لله القدرة وحده على تغييره وتبديله وأن عملية التغيير التاريخى هى عملية اساسية لهذا الكون •

ثالثا — الايمان بمساواة الناس جميعهم امام الله ، لا فرق بين جنس وجنس ولا فضل لشعب على شعب ، فالجميع سواسية فى نظر الله وليس هنالك جنس يرقى عن جنس آخر فالجميع من طينة واحدة والكل يؤدى فى هذه الحياة دوره الذى رسمه الله له حتى تتم ارادته • لذا لم يقنع المؤرخ المسيحى بسرد تاريخ طائفة معينة من

---

(١) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ١٠٦ •

البشر دون باقى الطوائف ، كالرومان أو اليهود • كذلك لم يقتنع المؤرخ المسيحى فى هذه العصور بعرض تاريخ يتصل بأحداث جزئية ، وانما استهدف تاريخا عاما للعالم كله يكون موضوعه التطور العام للأهداف التى رسمها الله لحياة الانسان فوق هذا الكوكب يكون أساسه التشريع المسيحى الذى أنزله الله لادارة هذا الكون •

وعلى ذلك جاءت خصائص كتابة التاريخ المسيحى كالاتى :

(١) كتب التاريخ العام للعالم وللانسانية ، منذ نشأتها وبدءا بنزول الانسان على هذه الأرض • ثم يعرض لكيفية نشأة الاجناس البشرية وظروف هذه النشأة وأماكن استقرارها فى أرجاء الارض • ثم تطور احوال هذا العالم حتى ظهور المسيحية • ثم يتناول المؤلف التاريخ لحياة ما بعد المسيحية • كذلك وصف المؤرخ نشأة المدنيات والدول وازدهارها ثم انهيارها كمسيرة للانسانية عامة • وجاء بذلك مخالفا لمؤرخى الاغريق والرومان الذين كتبوا تاريخا لشعوبهم وللأحداث التى دارت فى فلك هذه الشعوب•(١)

(٢) نسب المؤرخ الأحداث لمشيئة الله وارادته ولم ينسبها لحكمة البشر ، وبذلك ظهر الانسان مجرد أداة بالنسبة للأحداث التاريخية وليس له أى دخل فيما وقع من أحداث •

(٣) اهتم مؤرخو العصور الوسطى المسيحيون بابراز حياة السيد المسيح ومسيرته فى هذه الحياة ، تلك المسيرة التاريخية التى جعلها محور الأحداث كلها • واعتبر هذا المؤرخ أن ما سبق هذا الحدث العظيم من أحداث ما هو الا مقدمات لوقوع هذا الحدث العظيم التى كانت البشرية تنتظر وتترقب حدوثه • كذلك اعتبر ما وقع بعد هذا الحادث نتيجة تطورت عنه• ولذلك قسم هؤلاء المؤرخون التاريخ الى قسمين : قسم يبدأ قبل الميلاد وقسم يبدأ بعد الميلاد • وصوروا القسم الأول كقسم مظلم متخلف تفشت الجهالة فيه وسادت الظلمة ارجاءه اما القسم الثانى فابرزوه كقسم النور والمعرفة والاشراق • وأول من نهج هذا النهج المؤرخ ايزيدور الأشبيلى Issidor

(١) كولنجود : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٨ •

فى القرن السابع ، ونهج على نهجه فى القرن الثامن المؤرخ بيـــــــد Bid .

(٤) اعتبر مؤرخو المسيحية الأحداث التى هى دون أهمية حادث ميلاد المسيح ومسيرة حياته أحداثا ثانوية فرعية ، ليست فى أهمية هذه السيرة العظيمة والسيرة المقدسة ، ولكنهم اعتبروا أن أهمية هذه الأحداث تأتى فى السياق الذى وردت فيه . ولذلك نجد أن مؤرخى العصور الوسطى يقسمون التاريخ الى موضوعات جعلوا كل موضوع يبدأ بحادثة معينة ، وأوردوا أحداثا تاريخية فى كتبهم ، لم يعتبروها مهمة فى نظرهم ، ولكن استخلصوا منها النتائج التى دونوا التاريخ من أجله ، وهى اظهار مشيئة الله وبيان قدرته فى تسيير قدر جميع الأحداث .

وهكذا نجد علم اللاهوت هو الذى سيطر على روح كتاب تاريخ العصور الوسطى ، الأمر الذى لا نلحظه على الاطلاق فى تاريخ الاغريق والرومان المدون . يقول جوستاف لوبون فى هذا الصدد [1] :

" ... قال جيزو : تصفحوا تاريخ ما بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر تجدوا أن علم اللاهوت هو الذى يسيطر على الروح البشرية ويوجهها فتطبع جميع الآراء بطابع علم اللاهوت وينظر الى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية من الوجهة اللاهوتيه دائما ... والروح اللاهوتية من بعض الوجوه هى الدم الذى جرى فى عروق العالم الاوروبى حتى بيكون وديكارت " .

ويضيف لوبون قائلا : " ..... ان الكتب التاريخية التى ألفت فى ذلك الزمن الطويل تدل على درجة ما يمكن أن تؤثر به العوامل الدينية فى أفكار الناس وعلى مقدار بساطة المبدأ العام عن الكون فى ذلك الحين . وكانت تسيطر على مجرى التاريخ قدرة ربانية عاطفة أو ساخطة فكان لابد من خشيتها او التضرع اليها بغير انقطاع . وكان أقوى الملوك يرتجفون أمامها ، ومن ذلك أن كان لويس الحادى عشر ينفق لب ماله محاولا أن ينال

---

(١) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٦ .

بأثمن التقدمات حماية العذراء وأبرار الفرد وس قائمة على رواية مؤرخ له بأنهم يد خلون في أعمال الانسان دائما ، قادرين وحدهم على ضمان الانتصارات الحربية اوالدبلوماسية[1] ولم تأخذ مبادىء التاريخ اللاهوتية في الزوال الا بعد أن أثبت العلم خضوع جميع حوادث العالم لسنن وثيقة لا تعرف الهوى" .

ولقد اتسم تدوين التاريخ في العصور الوسطى بالضعف من حيث النقد والتحليل ، ولم يكن سبب ذلك راجعا الى قلة المصادر التاريخية وضآلة المادة العلمية التى عثر عليها هؤلاء المؤرخون ، وانما كان مرده الى تلك القيود التى قيدوا بها أنفسهم بصدد منهاج البحث ورسمتها الكنيسه لهم . ذلك لأن دراستهم التاريخيه لم تكن دراسة دقيقة قصد منها الحصول على الحقائق التاريخيه الصحيحة ، وانما كانت دراسة كنسية لاهوتيه استهدفت خوارق الذات العلية القدسية . ولذلك تحول التاريخ طوال هذه العصور ، أى قرابة الألف عام، الى لاهوت وفقد خلالها فى أوربا كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح مليئا بأخبار الخوارق والكرامات والمعجزات وسير القديسيين الطاهرين والآباء مغير معنى على الاطلاق الا بما له صلة فقط بالدين والكنيسة .

فلسفة التاريخ :

يدين ظهور فلسفة التاريخ الى تلك العصور الوسطى ، ذلك أنه برغم نهج رجال الكنيسة والآباء فى التاريخ ، وقضائهم بهذا النهج الكنسى على خصائص التاريخ الصحيحة كعلم مدة عشرة قرون ، الا أن ذلك النهج ، كان على سبيل التعويض ، المنشى لما عرف بفلسفة التاريخ .

ذلك بأن أوهام هؤلاء الآباء عن مجرى حوادث هذا العالم السفلى قد دفعت بهم ، برغم غرابتها ، الى امعان الفكر وتدقيق النظر فى أحداث التاريخ وعرضها عرضا كليا غير متجزىء . وأثناء قيامهم بذلك توصلوا الى حقيقة مؤداها أن رحلة معاناة الانسان على هذه الأرض منذ طرده من الجنة ونزوله عليها وحتى حادث الفداء الذى

(١) لوبون : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧ .

تحمله المسيح فى رحلة عذابه وآلامه ، تنسج فى خيوطها وحدة متكاملة من حيث الأصل الدرامى . وبذلك فكوا عن التاريخ قيود الزمان والمكان واعتبروه سجلا حافظا لقصة واحدة تتمثل فى ارادة الله نحو هذا المخلوق الآدمى . وبذلك أعطوا التاريخ قدسية وغلفوه بوقار لم يعرفهما من قبل .

وينسب هؤلاء المؤرخون ، فى نظرتهم الفلسفية للتاريخ ، نشوء الأحداث التى يتألف منها التاريخ الى عاملين مختلفين : أحدهما ثابت والآخر عارض . والثابت هو المتصل بالمكان وتضاريسه والسلالات والأعراق ، اما العارض فهو الاديان والرسالات والحروب والفتوح وغيرها . وبذلك أخذوا بمبدأ العلة . ومبدأ العلة علميا يقول باستناد حدث على حدث آخر سابق له . وطبقوا هذا المبدأ على التاريخ فقالوا أن الاحداث التى وقعت فى الحاضر القريب لتستند على علل قامت فى الماضى البعيد ، ولذلك على الناس الا يحكموا على ما بين ايديهم دون أن يرجعوا الى العوامل السابقة التى أدت ما هو امامهم الآن . ويقول هؤلاء الفلاسفة المؤرخون ان عظمة التاريخ تتمثل فى أن الحاضر الذى يقع امام أعيننا ونراه جيدا هو فى الحقيقة صادر عن ماض بعيد لا نراه ، ولذا يقتضى منا حسن ادراك الحوادث الرجوع الى سلسلة من العلل السابقة ، وأن الوقائع التى لا يمكن اسنادها الى عللها يجب ان نخرجها عن اطار التاريخ .

كتاب تاريخ الكنيسة :

ولقد جاء كتاب تاريخ الكنيسة " لايزبيوس القيسارى " Eusebius كأول محاولة لجمع المادة التاريخية الخاصة بتاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى وتمثلت فيه الافكار التى تحول اليها التاريخ فى هذه العصور . وبلغ من فرح آباء الكنيسة بهذا الكتاب أن أطلقوا على مؤلفه لقب : " أبا تاريخ الكنيسة "(١) . ولقد عاش ايزبيوس

---

(١) Shotwell : Op. cit., p. 352.

ثمانين عاما (٢٦٠–٣٤٠م) يدرس ويطلع في مدينة قيسارية ، التي تنسب اليها ، والتي زودته مكتبتها الضخمة بثقافة عالية ، الأمر الذى ساعده على اخراج هذا الكتاب الهام . والى جانب كتاب " تاريخ الكنيسه " ألف ايزيبيوس كتابا آخر أسماه " التاريخ " The Chronicle جمع فيه التاريخ ورتب أحداث الأمم فيه أمة بعد اخرى ونهج فيه نفس النهج الجديد الذى أشرنا اليه آنفا .

كتاب مدينة الله :

جاء بعد هذا الكتاب كتاب " مدينة الله " Civitas Dei لمؤلفه القديس أوغسطين St. Augustinus ، أسقف مدينة "هيبو" Hippo (١) (٣٥٤–٤٣٠م) ، كأول محاولة لوضع خلاصة وافية لفلسفة التاريخ ولقد أعتبر أوغسطين الامبراطور قنسطنطين امبراطورا عظيما لاعتناقه المسيحية ، بعد أن هداه الرب الى دينه الصحيح وجعله ينبذ عبادة الأصنام ويزدرى الوثنية ، ويقود الامبراطورية الرومانية الى المسيحية ، الديانة الحقة ، فى نظره ، ويجعله الرب بذلك سيفه ضد أعدائها الكفار ليحاربهم به وبواسطته تنتصر ارادة الله .

ولقد بدأ أوغسطين كتابة كتابه هذا سنة ٤١٣م وفرغ من كتابته سنة ٤٢٦م — واستغرقت كتابته بذلك منه ثلاثة عشر عاما . وقد وضع أوغسطين هذا الكتاب ليرد به على تساؤل المتسائلين عن سبب سقوط (مدينة الله) روما فى أيدى القوط والوندال — المتبربرين ، وزعمهم بأن ذلك حدث بسبب تخلى آلهة روما عنها ، وبسبب انعدام ذلك الورع وتلك التقوى اللذين كانا سائدين أيام مجد وعظمة روما . ورغم أن كتاب مدينة الله ليس كتابا تاريخيا بالمعنى الصحيح ، الا أن افكاره من الممكن أن تعد أساسا لما يمكن ان يكتب به التاريخ (٢) .

---

(١) هى مدينة عنابة (بون) الحالية الموجودة بدولة الجزائر العربية ، الواقعة فى جزئها الشرقى ، فى شمال افريقية .

(٢) Shotwell: Op. cit., p. 367.

وقد لخص أوغسطين ، في مقدمة كتابه ، المناسبة التي وضع من أجلها هـذا الكتاب ، كما لخص فيها خطته فيه قائلا :

"لقد غزى روما السقوط تحت قيادة مليكهم "ألريك" الوثني ، عابد الأصنام وأراد بزحفه هذا أن يقض على الديانة المسيحية وأن يبدل الله الحقيقي بآلهة زائفين . وقد دفعني هذا الأمر الى أن ألجأ الى جنب الله وعاهدت نفسي أن أدافع من أجله عن مدينة الله ضد عصاته المتبربرين . ولقد قمت بانجاز هذا العمل في اثنين وعشرين كتابا . في الخمسة الكتب الأولى منها تحدثت عن ضرورة الدين من أجل تقدم الحياة وازدهارها . وفي الخمسة التالية خاطبت أولئك الذين يزعمون أن أحداث العالم التي وقعت والتي تقع هي من صنع الانسان وليست من مشيئة وارادة الله الخالق . وفي باقي الاجزاء تحدثت عن أعمال الرجال ، وعن أصل مدينة الله ، ومدينة العالم اليوم . كذلك تحدثت عن تاريخ هؤلاء الرجال وعن سر تقدمهم ورفعتهم .

ومن أجل هذا كله ، أطلقت على هذا الكتاب اسم : مدينة الله "(1) .

ولقد دارت روح كتابة أوغسطين حول الصراع بين الخير والشر منذ بدء الخليقة حتى أيامه ، مظهرا خلال هذه الكتابة أيام ما قبل ظهور المسيحية على أنها فترات مظلمة داكنة من تاريخ مدينة الله ، على عكس ما أظهره لتاريخ هذه المدينة بعد قيام المسيحية ، ولقد أكد أن ما كانت تعاني منه روما ، قبل المسيحية ، لم يكن مرجعه إلا إلى عبادتها لآلهة زائفة .

وبرغم ما في كتاب أوغسطين من مآخذ ، الا أن تصوره للتاريخ والفلسفة ظل هو التصور السائد في أوربا العصور الوسطى مدة ألف عام تقريبا . وقد عَد رجال الأدب كتاب " مدينة الله " من الكتب البارزة في آداب العالم على مدى كل العصور .

ومن مؤرخي العصور الوسطى الذين نهجوا نهج أوغسطين وسمعنا عنهم :

---

(1) Shotwell : Op. cit., p. 367.

المؤرخ أوروسيوس Orosius ، والمؤرخ "سلفيانوس" Silvianos ، والمؤرخ "يوحنا" أسقف نيقية . John of Nikious .

باولوس أورسيوس :

ولحسن الحظ ، فبينما كان القديس أوغسطين يسطر نصف كتابه مدينة الله ، ساقت الأقدار الى طريقه رجلا لمع اسمه فى التاريخ . وكان هذا الرجل قسيسا شابا من أسبانيا لم يتعد الثلاثين عاما من العمر . ولكنه كان ذكيا ذكاءا حادا ، هذا الشاب هو باولوس أورسيوس . ولم تطل أول الأمر اقامة اورسيوس مع أوغسطين اكثر من عام ، إذ ارتحل الى فلسطين . وبقى هنالك مدة ثم عاد ثانية الى افريقية واجتمع ثانية بأوغسطين الذى طلب منه أن يكمل كتابه الحادى عشر من مدينة الله . وكتب أورسيوس كتابا ، انتهى من كتابته سنة ٤١٨ م وجعله بعنوان "كتب التواريخ السبع ضد الوثنين" . ولقد وضع اورسيوس كتابه هذا بتصور عالمه التاريخى باحساس مختلف عن احساس أوغسطين ، أى باحساس المؤرخ المتحرر بعض الشىء من قيود أفكار مؤرخى رجال الكنيسة (١)

ظهور الحوليات : Annals

ولقد استفاد علم التاريخ من العصور الوسطى بظهور الحوليات ، وهى تسجيلات للحوادث المعاصرة ، وقت حدوثها عاما بعام . وكانت الحوليات فى تلك العصور شديدة الشبه بنظائرها عند قدماء المصريين وعند البابليين ، ورغم أنها بدأت بتسجيلات قليلة القيمة الا أنها انتهت فى اواخر العصور الوسطى الى سجلات مفيدة لعلم التاريخ اذ زودتنا بمعلومات وافية عن جهود الانسانية فى هذه العصور .

وظهرت أيضا فى هذه العصور كتب تاريخيه كتبها أصحابها بقصد عرض الحوادث عرضا أتم وأوفى مما فى الحوليات . ومع احتفاظ هذه الكتب بالطابع الحولى الا أن —

(١) Ibid, pp. 370, 371.

غرض أصحابها من كتابتها كان يتمثل فى الرغبة فى تلخيص تاريخ العالم منذ بدء الخليقة الى وقت صدورها . ومن الممكن أن نعتبر الأجزاء الأخيرة من هذه الكتب كتباً تاريخية حقيقية لتناولها حوادث معاصرة لمؤرخيها استمدوها من مصادر صحيحة .

ومن أشهر هذه الكتب التاريخيه التى ظهرت فى العصور الوسطى (١) :

- تاريخ نانت Chronicle of Nantes الذى ظهر فى فرنسا وتناول ذكر الحوادث التاريخيه حتى سنة ١٠٤٩م.

- التاريخ الانجلو سكسونى Anglo - Saxon Chronicle الذى ظهر فى ألمانيا وتناول ذكر الحوادث التاريخيه حتى سنة ١١٥٤م .

- تاريخ أوتو Oto Chronicle ، الذى ظهر فى ألمانيا أيضا ، وتناول ذكر الحوادث التاريخيه حتى عام ١١٥٨م.

- التاريخ الأكبر لماتيو Magna Chronicle of Matheo الذى ظهر فى انجلترا ، وتناول ذكر الحوادث التاريخيه حتى سنة ١٢٥٥م.

وأخذ مؤرخو القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعدلون عن الشكل الحولى ويختصرون ذكر المعجزات والكرامات ويتوخون اسلوب القصة المنسوقة . وأصلح ما يتمثل به للتاليف الذى نحا أصحابها هذا النحو تاريخ فروسار Froissart المؤرخ الفرنسى الشهير (١٣٣٧-١٤١٠م) ، ومذكرات فيليب كومنين Philippe de Comnines ، وهو المؤرخ الفرنسى الذى يُطلق عليه الفرنسيون لقب أبى التاريخ الحديث .

ولقد جاء التقدم الملحوظ فى تاريخ العهد الأخير من العصور الوسطى ناشئاً الى حد بعيد ، من تأثير الحضارة العربية الاسلامية التى شملت العالم الاسلامى كله فى ذلك الزمان . فلقد تماست المسيحية بالاسلام فى الأرض المقدسة بفلسطين

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

إبان الحروب الصليبية ، وعاشت بها فى صقلية وجنوب ايطاليا وبلاد الأندلس .
ولم يكن هذا التماس فى جملته عدائيا . فان الصليبيين الذين خرجوا من
ديارهم لقتال المسلمين جلسوا فى فترات الهدنه يأخذون من علماء المسلمين أفانين
العلم والمعرفة بعد أن أدركوا أنهم اكثر منهم تحضرا وأزيد علما وعندما لمسوا
هذا الفارق الكبير فى العلم والمعرفه والمدنية . ولما عاد تلاميذ العلم الاوربيون
الى بلادهم نقلوا ما تعلموه الى بلادهم ، الامر الذى أيقظ الأوروبيين فيما
عرف عندهم بعصر النهضة ، فانبثق ينبوع العلم عندهم وأشرقت شمس الحضارة
مع اشراقه فجر العصور الحديثة . وراح رجال العلم الاوربيون ينهلون من نبع علم
المسلمين فى شتى المجالات . .

وفى مجال التاريخ ، الذى نحن بصدده ، نجد الكثيرين من رجال الغرب
الذين تصدوا للتاريخ يتعلمون من المؤرخين المسلمين كيفية كتابة التاريخ بعد
أن نضج فهمهم له وبعد أن أحرزوا التقدم الهائل فيه وظهر منهم من نستطيع
أن نطلق عليهم بحق مؤرخين حقيقيين . وكنا أن نجد بين هؤلاء المؤرخين
المسلمين العلامة عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) الذى كتب فيما كتب
مقدمة لتاريخ عام بلغت من سعة الاحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة ما جعلها مصداقا
لما قاله الأستاذ "بلنت" Plint ترتفع بهذا العالم الكبير الى صدارة
مؤرخى العالم فى شتى العصور .

(ب) علم التاريخ عند العرب :

التاريخ والتأريخ والتوريخ بمعنى الوقت هو لفظ عربي أصيل ، قال
الجوهرى : التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله ، يقال أرخت وورخت ، وقد
فرق الأصمعى بين اللفتين فقال : بنو تميم يقولون : " ورخت الكتاب توريخا "
وقيس تقوله أرخته تأريخا ، وهذا يؤكد كونه عربيا (١) . وقيل أنه لفظ دخيل

(١) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ١٠

على العربية وأصله سرياني ومعناه : الشهر (١) . وقد عرف العرب التاريخ قديما ، وكان الناس يؤرخون من آدم الى الطوفان ، وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة . فكان بنو ابراهيم عليه السلام يؤرخون من نار ابراهيم الى بنيان البيت الحرام حين بناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ثم أرخ بنو اسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم ، ومن بقي بتهامة من بني اسماعيل يؤرخون من خروج قبائل : سعد ، وفهد ، وجهينة بني زيد من تهامة ، حتى مات كعب بن لؤي فأرخوا من موته الى الفيل (٥٧٠م) ، ثم كان التأريخ من الفيل حتى أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة (٦٢٢م) ، وذلك في سنة ست عشرة أو سبع عشرة او ثمان عشرة (٢) .

وكانت حمير تؤرخ بالتبابعة (٣) ، وغسان بالسد (سد مأرب) ، وأهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن ، ثم بغلبة الفرس . ثم أرخت العرب بالأيام

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٥١ .

(٢) السخاوي : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) تكونت في جنوب الجزيرة العربية في التاريخ القديم عدة دويلات أهمها : دولة معين ، دولة سبأ ، ودولة حمير التي تتابعت في حكم المنطقة لمدة لا تزيد على ١٥٠٠ عام . ودولة معين هي أقدم دول اليمن اذ ظهرت سنة ١٢٠٠ ق.م. ، ثم تلتها دولة سبأ ، وهي أعظم ممالك اليمن شهرة ، وقد تغلبت سبأ على معين سنة ٦٥٠ ق.م واصبحت لها السيادة على اليمن ، وكانت أهم مدنها مأرب العاصمة ، وتقع الى الشرق من صنعاء عاصمة اليمن الحالية . ومن أشهر أعمال هذه الدولة سد مأرب الشهير ، وأعظم ملوكها الملكة بلقيس التي ورد ذكرها في القرآن الكريم أيام حكم سيدنا سليمان لدولة فلسطين .

ثم ظهرت دولة حمير سنة ١١٥ ق.م بعد سبأ والى الجنوب منها ، واستمرت قائمة الى ما قبل الاسلام بقرن تقريبا .

المشهورة : كحرب البسوس ، وداحس والغبراء ، ويوم ذى قار ، وحرب الفجار وغيرها . فأرخ كل منهم بحادث مشهور لعدم وجود تاريخ واحد يجمعهم ويمنع خلافهم [١] .

وكان العرب ، قبل الاسلام ، يحسبون الوقت بالنجوم والأهلة (جمع هلال) وينسأون الشهور (يغيرون أسماءها) [٢] ، وكانوا يبنون التاريخ على الليالى دون الأيام بخلاف الفرس .

والتاريخ ، عند العرب ، فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان ، وهو على هذا المعنى قديم عندهم نما معرفة ساذجة من معارف العرب قبل الاسلام ، ثم اكتمل مع الزمن حتى أصبح علما من أجلّ علومهم وأعظمها شأنا . وكان عرب الجاهلية ، لغلبة الأمية عليهم ، يتذاكرون أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار ينظموها فى قصائد أو أخبار متفرقة . وقد لعب الشعر دورا أساسيا فى الرواية الشفوية ، ونشأت قصص (الأيام) فى المجالس القبلية المسائية ، وكان هذا القصص من مجموع الروايات القبلية الشفاهية التى تداولتها القبائل فيما بينها وكان ملكا مشتركا بينها ، وبقيت هذه القصص كذلك حتى جُمعت وصُنفت ودُونت ، وكان ذلك فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى [٣] . وتحوى الأيام ، برغم ما فيها من مبالغات ، على بعض الحقائق التاريخيه ، وترجع أهميتها الأساسية فى أنها حفظت لنا أحداثا تاريخية وقعت عند ظهور الاسلام وفى صدره ، بسبب استمرارها فى صدر الاسلام ، فخدمت بذلك التاريخ عند العرب .

هذا عن العرب البدو ، أما الذين عاشوا فى حواضر الجزيرة العربية ، وخاصة اهل اليمن والحيرة ، فقد نقشوا بخطوطهم على مبانى قصورهم ومعابدهم أخبار ملكتهم وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها [٤] .

---

(١) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٤٩ .
(٢) حرم الاسلام النسىء ، وورد هذا التحريم فى القرآن الكريم ، لما له من أثر فى تغيير الأشهر الحرم .
(٣) عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٧ .
(٤) الدورى : نفس المصدر السابق ، ص ١٤ .

وتشير كتابات ونقوش جنوب الجزيرة الى تاريخ الممالك القديمة التى ظهرت فى تلك البلاد ، وهى ممالك معين وسبأ وحمير ، ويرجع تاريخ هذه الكتابات الى الفترة ما بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السابع الميلادى . ومع أن بعض هذه الكتابات دينية فى طبيعتها ، الا ان البعض الآخر منها هو فى الأساس سجل لتخليد الأعمال الهامة . وبرغم أن الطريقة التى بدأ بها تسجيل هذه الأحداث كانت طريقة تاريخية مشوشة الا أنه مع تقادم العهد ، بدأ هذا الاضطراب والتشويش يقل فيها . ولقد وُجدت ضمن هذه المخلفات ، وثائق ملكية وسجلات لملوك حمير ، وسجلات للأنساب حفظتها بعض قبائل وبطون العرب .

أما فى شمال الجزيرة ، فقد كان لدى المناذرة ، كتب تحوى أخبار عرب الحيرة وأنسابهم وسير ملوكهم ، وقد حُفظت هذه الكتب فى كنائس وأديرة الحيرة ، كذلك حوت هذه الكتب على كثير من أخبار دولة الفرس التى كانوا موالين لها .

بداية التأريخ عند المسلمين :

قيل أن أول من أرخ التاريخ عند العرب المسلمين يعلى بن أمية حيث كان باليمن (١) . وقيل أنه قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا ، فقال عمر بن الخطاب هذا حسن ، فأرخوا . فلما أجمع على ذلك قال قوم : أرخوا للمولد (مولد الرسول) ، وقال قائل : للمبعث ، وقال قائل : من حين خرج مهاجرا وقال قائل : من حين توفى ، فقال عمر : أرخوا من خروجه من مكة الى المدينة (٢) . ثم قال : بأى شهر نبدأ ؟ فقال قوم : برجب ، وقال قائل : برمضان ، فقال عثمان : أرخوا من المحرم فانه شهر حرام ، وهو أول السنة ومنصرف الناس من الحج ، قال : وكان ذلك فى سنة سبع عشرة فى ربيع الأول . وكذا روى عمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله عنهما : "كان التاريخ فى السنة التى قدم فيها النبى (ص) المدينة ، وفيها وُلد عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، وكانت العرب قبل ذلك ، تؤرخ بعام الفيل ، وهو العام

---

(١) السخاوى : الاعلان ، ص ١٤١ .

(٢) السخاوى : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

اعلان الرسول (ص) بدور القرآن التاريخي :

قال رسول الله (ص) ، معلنا دور القرآن التاريخي : "القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم" (٢) . ولقد جاء القرآن الكريم بنظرة جديدة الى الماضي وأكد على أمثلة التاريخ الغابر وعظاته وذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة للتأكيد على العبر الدينية والخلقية التى تنطوى عليها . وجاء القرآن بنظرة عالمية الى التاريخ تتمثل فى توالى النبوات ، وكان لهذه النظرة أثرها فى الالتفات الى تاريخ الأنبياء والى الاسرائيليات ، الا أن هذه النظرة العالمية اقتصرت على الفترات التى سبقت ظهور الاسلام ، أما بعد ذلك فان الاهتمام أنصب على تاريخ الاسلام (٣).

ومن نصوص القرآن الحاثة على دراسة التاريخ قوله تعالى :
" وكُلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين " (٤) ، وقوله تعالى :
" وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا " (٥)

وفى القرآن آيات كثيرة حثت المسلمين على دراسة تاريخ الأمم والشعوب الغابرة لأخذ الموعظة والعبرة بما نال هؤلاء الأقوام من سوء المصير مثل قوم نوح وعاد وثمود .
يقول تعالى :
" وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح .. (٦) ، " أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن" (٧)

---

(١) السخاوى : الاعلان ، ص ١٤٣ .
(٢) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف ، القاهرة ١٢٧٩ هـ ، ص ٢١ .
(٣) الدورى : علم التاريخ عند العرب ، ص ١٨ .
(٤) هود : ١٢٠ .
(٥) الاسراء : ١٢ .
(٦) الاسراء : ١٧ .
(٧) الانعام : ٦ .

"وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بعد ذلك كثيرا"(١) .

وفى القرآن اشارات الى تعاقب الحضارات وذكر الأطوار التى تمر بها وهى أطوار النشأة والتطور والازدهار ثم التدهور ، بقوله تعالى :
" وتلك الأيام نداولها بين الناس " ، " ولكل أمة أجل "(٢) ، " لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجزى الا الكفور"(٣).

وفى القرآن قصص تاريخى ، ورد فى اشارات موجزة ، كان على المسلمين أن يرجعوا الى تفاصيل هذه القصص وينقبوا عنها فى تواريخ الشعوب القديمة . فلقد أشار القرآن الكريم الى قصة آدم وحواء وخلق الأرض بقوله تعالى : " واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى ، فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ، فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى "(٤) .

وأشار القرآن الى أهل الكهف وقصة ذى القرنين (٥) ، وقصة يوسف واخوته (٦) وقصة موسى وتاريخ بنى اسرائيل (٧) . والقصص التاريخى الذى أورده الله تعالى فى كتابه الكريم ، لم يكن قصصا للتسلية والمتعة ، ولكنه قصص أريد به اظهار نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بذكرها على رسالته . ومنها قصص قوم للتأسى بهم فيما اثنى الله عليهم به ، ومنها قصص الاعلام بشرف الرسول وشرف أمته ، ومنها قصص التهذيب والتأديب (٨) . ومن هذا القصص ما هو موجه .

---

(١) الفرقان : ٣٨ .
(٢) الأعراف : ٣٤ .
(٣) سبأ : ١٥-١٧ .
(٤) طه : ١١٦-١٢٣ .
(٥) الكهف : ٩٣ - ٩٧
(٦) سورة يوسف
(٧) فى كثير من آيات سورة آل عمران وسورة القصص وغيرهما
(٨) السخاوى : الاعلان ، ص٣٦ ومابعدها .

الرسول (ص) :

" وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين "(١) ، " نحن نقص عليك أحسن القصص ".

وقد نص القرآن على أن أقوال الرسول موحى بها ، وأن سيرته مثل للمسلمين يقتدون به ، وهنا نجد دافعا مباشرا لدراسة أحوال الرسول وأفعاله ، وكان ذلك مدخل المسلمين الى دراسة علم التاريخ . وقد شعر العرب في الاسلام بأنهم أصحاب رسالة جليلة وأنهم يمرون بمرحلة هامة في تاريخهم عليهم أن يسجلوها ، كما أن الفتوحات الكبرى التي قاموا بها جعلتهم يحسون بأن لهم دورا تاريخيا خطرا وأنهم بهذه الفتوح ، قد سطروا سطورا جديدة في التاريخ ، وكان لكل هذا أثره القوى في اهتمامهم بالتاريخ . ووضع الخليفة عمر تقويما ثابتا للمسلمين ، صار هذا التقويم عنصرا حيويا في نشأة الفكرة التاريخية عندهم ، وأصبح ، منذ وضع هذا التقويم ، توقيت الحوادث او تاريخها هو العمود الفقرى للدراسات التاريخية عندهم .

بواكير التاريخ الاسلامي :

لا يدين العرب في تعلمهم للتاريخ بشيء لمؤرخي اليونان والرومان ، ولم تصلنا سجلات أو وثائق تاريخيه لعرب الجاهلية في الحجاز تشير الى مثل هذا التأثير . ولقد اكتفى عرب الحجاز في الجاهلية بتسجيل أعمالهم في قصائدهم الشعرية ، لذا كان الشعر هو ديوان العرب وسجل أعمالهم ، وقد وصف العرب بقوة ذاكرتهم .

ولقد حفظت لنا " الأيام " بعضا من تاريخ العرب في الجاهلية ، ولا شك أن الكثير من هذا التاريخ قد ضاع حين أقدم العرب المسلمون في القرن الثاني على تدوين وتسجيل هذا التراث لتقادم المدة ولموت الكثيرين من الحفظة .

---

(١) هود : ١٢٠ .

وعند قيام دولة الاسلام ، لم يهتم العرب بتدوين وحفظ هذا التراث لانشغالهم بالاسلام ، ولرغبتهم فى اسقاط تلك الحقبة التاريخية من تاريخهم باعتبارها فترة جهالة وظلمة وبُعد عن النور والحق .

ويكشف الحديث الشريف الشهير "الاسلام يجب ما قبله" عن السبب الرئيسى لما يغلب على علاج المؤرخين المسلمين للعصر الجاهلى من غموض وشك. وتروى القصص عن الداخلين فى الاسلام حين سألهم عمر أن يرووا بعض التجارب الجاهلية أو ينشدوا بعض الشعر الجاهلى ، فكان جوابهم له : "لقد جب الله ذلك بالاسلام فلم الرجوع ؟ " . وقد وجدت عند المؤرخين المسلمين هذه الفكرة التى تذهب الى ابتداء عهد جديد فى حياتهم عليهم أن يبدأوا به ، أما ما سبق هذا العهد فعليهم أن يجعلوه فى طى النسيان [1] .

كذلك لم يهتم العرب فى الاسلام فى عهده الأول بالاحتفاظ بالسجلات النظرية التى كانت سائدة آنذاك والذاهبة الى عدم تدوين أى كتاب سوى القرآن حتى لا يحدث هنالك لبس بين كلام الله وكلام العباد ، فيحدث بذلك انتاج منافس للقرآن فيضطرب الامر بذلك بين المسلمين كما اضطرب من قبل بين اليهود والنصارى .

هذا فضلا عن ظهور طبقة الحُفاظ الثقات الذين آلوا على أنفسهم حفظ كلام الله وحفظ كلام الرسول مع الحرص فى التفرقة بينهما حتى لا يتم الخلط والاضطراب. ولذلك وجد المسلمون ، فى أول عهدهم بالاسلام ، كفايتهم فى هذه الطبقة التى اعتمدوا عليها ولم يلقوا لذلك بالا بالتدوين الذى قد يدخل فى الخلط والاضطراب .

ولقد تغيرت جميع هذه النظريات بمرور الوقت ، ودعت الحاجة الى ضرورة التدوين التاريخى عند المسلمين وضرورة الاهتمام بعلم التاريخ. ونلاحظ أن بداية علم التاريخ عند العرب سارت فى اتجاه دينى ، وهو الاتجاه الذى ظهر عند أهل الحديث فى مجتمع صدر الاسلام.

---

(١) مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة حسين نصار ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص ١٠٠-١٠٥ .

ولقد أصبحت حاجة المسلمين ماسة الى معرفة سيرة النبى العربى وأحواله وأقواله وأفعاله وحروبه ومعاهداته استقصاء للسنة ، فتوفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الاسلام بالتاريخ ، على أن التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث، ولذا يمكن أن نقول بأن المؤرخين المسلمين بدأوا محدثين ثم انتهوا مؤرخين .

كُتّاب المغازى :

سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول (ص) باسم المغازى ، وهى كلمة تعنى لغويا : غزوات الرسول وحروبه ، ولكنها تناولت فى الحقيقة فترة الرسالة بكاملها . وأقدم كتاب المغازى هم : عروة بن الزبير ، ابان بن عثمان بن عفان ، وهب بن منبه .

ويعتبر عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ - ٧١١م) مؤسس دراسة المغازى ، اذ كان أول من ألف كتابا فيها ، وتناول كتابه دراسة جوانب مختلفة من حياة الرسول . وتميز أسلوب عروة بالبساطة والبعد عن الكلفة ولقد حصل على معلوماته التاريخية التى اوردها فى كتابه من مصادرها الأصلية ، وبخاصة من السيدة عائشة ومن أسرته من آل الزبير . وامتدت دراسة عروة بعد عهد الرسول وشملت دراسة فترة الخلفاء الراشدين .

أما أبان بن عثمان بن عفان (ت ٩٥هـ) ، فكان محدثا له ميل الى دراسة المغازى وجمع بين شخصية المحدث وشخصية المؤرخ . كما ألّف وهب بن منبه (ت ١١٠هـ) فى المغازى ، واهتم بدراسة الاسرائليات ، وهى قصص وأساطير عن العهد القديم ، أعانته فى توضيح بعض الاشارات القرآنية عن بنى اسرائيل . وبذلك أدخل ابن منبه عنصر القصص الى الدراسات الاسلامية . وكان كتاب " المبتدأ " لابن منبه أول محاولة لكتابة تاريخ الأنبياء ورسالاتهم ، بدأ فيه بالحديث عن خلق العالم ثم انتقل الى تاريخ التوراة ، ثم تاريخ الأنبياء الذين ذكرهم القرآن ، حتى وصل الى تاريخ الصالحين مثل لقمان الحكيم وأهل الكهف .

وبعد جهود هؤلاء الكتاب الثلاثة انتهى علم السيرة والمغازى الى رجلين من الموالى [1] هما : محمد بن اسحق ، ومحمد بن عمر الواقدى وهما مؤرخان لهما أهمية خاصة لأنهما يمثلان فترة الانتقال بين المحدث والمؤرخ ، وعند دراسة تاريخ هذين المؤرخين يكتشف أننا انتقلنا الى علماء هم مؤرخون فى المقام الأول ، ثم محدثون فى المقام الثانى .

وقد وصلتنا من محمد بن اسحق (ت ١٥١هـ) [2] أقدم سيرة للرسول تكاد تكون محفوظة بكليتها ، وهى تتناول سيرة الرسول من بعثته ومغازيه وسراياه ، وبدأ السيرة بالحديث عن حياة الرسول قبل البعثة ولقد جمع ابن اسحق فى أسلوبه وكتاباته بين أساليب المحدثين والقصاص ، واستفاد فى عرضه التاريخى من الأحاديث والروايات التاريخيه والقصص التاريخى والاسرائليات واستشهد فى كتابه بكثير من الشعر الصحيح والموضوع . كذلك استفاد ابن اسحق من الروايات والأخبار الشفوية .

ولقد اختصر سيرة ابن اسحق المؤرخ عبد الملك بن هشام ، المتوفى سنة ٢١٨ هـ [3] فى كتابه الذى بين أيدى الناس اليوم ، ويعرف بسيرة ابن هشام . ولقد

---

(١) الموالى : هم غير العرب ، وهى كلمة كان العرب يطلقونها على العجم والبربر والأرمن وغيرهم ، وهى فى اللغة بمعنى عبد أو بمعنى أن صاحبها متولى لأمره ، وكانت هذه الكلمة بغيضه على سمع كل من لم يكن عربيا ، وقد ساد استعمالها فى عهد الدولة الأموية .

(٢) هو محمد بن اسحق بن يسار ، وكان من الموالى وأصله فارسى ، ولد نحو سنة ٨٥هـ بالمدينة ، وأخذ علمه عن علماء المدينة ، وأخذ عنهم الحديث الخاص عن المغازى .

(٣) هو ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى ، أصله من البصرة وبها ولد ونشأ ثم ارتحل الى مصر ولقى فيها الامام الشافعى وتوفى فى مصر ودفن فيها .

عمد ابن هشام فى مختصره الى حذف الأقسام التى رآها ضعيفة فى سيرة ابن اسحق ، كذلك طرح منها الشعر الموضوع . وعلى سيرة ابن هشام وضع السهيلى كتابه " روض الأنف " ، الذى اختصره الذهبى وسماه : بلبل الروض .

وتطورت دراسة السيرة والمغازى على يد محمد بن عمر الواقدى [1] (١٣٠ — ٢٠٧ هـ) ، وظهر ذلك فى كتابه " المغازى " المنتظم فى دراسته الواضح التسلسل الدقيق فى الاسناد وفى تحقيق تواريخ الحوادث . وقد كتب الواقدى فى مواضيع تاريخيه هامه مثل : الردة وفتنة عثمان ، ومعارك صفين والجمل وفتوح الشام والعراق وتاريخ الخلفاء . ولقد انتهى الواقدى فى ذكر أحداثه عند أحداث سنة ١٧٩ هـ .

وجاء ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ، فألف كتاب " الطبقات الكبرى " فى ثمان أجزاء والمعروف باسم طبقات ابن سعد ، الذى تناول فى القسم الأول منه أخبار النبى ووضع بذلك الخطوط الأخيرة لهيكل السيرة النبوية ودراسة المغازى . وذهب ابن سعد أبعد من الواقدى فى تنظيم مادته وتبويبها ، وفى اعطاء مجموعة أوفى من الوثائق وفى اهتمامه بصورة أقوى بسفارات النبى . وقد توسع ابن سعد فى الحديث عن شمائل الرسول وفضائله ودلائل نبوته ، وجعل لذلك بابا خاصا أصبح نموذجا لأدب الشمائل فيما بعد .

وهكذا نجد هيكل تاريخ السيرة النبوية الشريفة وكتابة المغازى يثبت نهائيا على يد ابن سعد ، ونرى تواريخ السيرة والمغازى التى تأتى بعده تتبع نفس الخطة وتنهج نفس النهج وتعتمد بالدرجة الأولى على المواد التى قدمها والتى قدمها من سبقه من مؤرخى السيرة والمغازى السابق ذكرهم .

---

(١) هو محمد بن عمر بن واقد الواقدى ، كان معاصرا لابن اسحق وكان مولى مثله .

الكتابة التاريخية فى القرن الثانى الهجرى :

الأخباريون :

وفى صدر الاسلام تمت الفتوح العربية وبدأت الدولة فى التوسع والانتشار، ووقعت فتن واستشرى الصراع بين المتطلعين الى الخلافة ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم البائدة والديانات السابقة على الاسلام على أيدى رجال مثل : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، فتوافرت بذلك أسباب شتى اقتضت جمع الأخبار المتصلة بكل تلك الأمور وتدوينها .

ولقد دعت دواع كثيرة الى الرجوع الى كتب التاريخ القديم والى تدوين أخبار القدماء منها : حاجة المشتغلين بتفسير القرآن لبعض المعرفة التاريخيه نظرا لاشارات القرآن لبعض أحداث هذا التاريخ . كذلك رغبة العلماء المسلمين فى التعلم من أحداث الأمم القديمة البائدة . كذلك ايضا ميل بعض الخلفاء الى التثقف والتزود بمعلومات عن اخبار وسياسات الملوك القدامى ، وكان بين هؤلاء - معاوية بن أبى سفيان وأبى جعفر المنصور ، ومن الأسباب الهامة التى دعت الى ذلك ظهور نعرة الشعوبية التى سرت حماها وتفشت فى الدولة العربية فى العهد الأموى ، الأمر الذى دفع الموالى الى البحث عن تاريخ أمجادهم القديمة واظهاره وابرازه حتى يكون لهم سلاحا فى حربهم ضد العرب فى تلك الحرب التعصبية الحمقاء التى كانت وبالا على الاسلام وعلى المسلمين . وجاء تدوين الأنساب وأيام العرب فى هذا القرن وذلك لحاجة الشعراء اليها عامة فى مجال الفخر والهجاء . وجاءت حاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها فى تقدير العطاء للجند المسجلين فى ديوان الجند (١) . وكان الباعث القوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة أولى الأمر فى

---

(١) ديوان الجند ، هو أول الدواوين التى انشأها الخليفه عمر بن الخطاب بعد قيام حركة الفتوح - وقد سجل في هذا الديوان أسماء الجند العرب المحاربين وأسراتهم ورصد لهم رواتب ثابته ، شريطة أن يتفرغوا للقتال ولا يعملوا فى الاعمال المدنية حتى يحتفظوا بروحهم القتالية . ولقد استمر تسجيل العرب في هذا الديوان حتى عام ٢١٧ هـ حين أحل الخليفه العباسى المعتصم الجند الأتراك مكانهم .

معرفة ما فتح من البلدان صلحا وما فتح منها عنوة وما فتح بعهد لتقدير حجم الخراج على أراض هذه البلدان .

فلما دون ذلك كله ، في القرن الثاني الهجرى ، وجد الى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين وأحوال الجاهلية وحوادث الاسلام. وقد أطلق العرب على ذلك كله ، في بادىء الأمر ، لفظ "الأخبار" وأطلقوا على المتخصص في روايته لفظ "الأخبارى" ، كما عرف المتخصص في رواية الحديث باسم المحدث .

ونلحظ النقلة من الحديث الى الأخبار في كتابات ابن سعد وابن اسحق والواقدى والمدائنى . فلقد كان كل من هؤلاء الرجال محدثا وأخباريا معا .
ولقد تخصص بعد ذلك في الأخبار عدد من المؤرخين المسلمين من أمثال :
محمد بن سائب الكلبى (ت ١٤٦ هـ) ، عوانة بن الحكم (ت ١٤٧ هـ) أبو مخنف (ت ١٥٧ هـ) ، سيف بن عمر (ت ١٧٠ هـ) ، وهشام بن محمد بن سائب الكلبى (ت ٢٠٤ هـ) .

ووجد في تلك المرحلة نوع من التخصص المحلى في رواية الأخبار ، فكان لكل قطر من الأقطار الاسلامية الهامة أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها ، فكان أبو مخنف : أخبارى العراق ، والمدائنى : أخبارى خراسان ، والواقدى : أخبارى الحجاز ، وابن عبد الحكم : أخبارى مصر .

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا في أواخر القرن الثاني الهجرى الأبواب الأساسية للتاريخ عند العرب المسلمين ، وانحصرت في أربعة أبواب هى :

- أخبار الماضيين وأحوال الدول البائدة التى ذكرها القرآن .
- أحوال العرب قبل الاسلام ، وفى الجاهلية على وجه الخصوص .
- سيرة الرسول الكريم ومغازيه وسراياه .
- أخبار الدولة الاسلامية حتى آخر ذلك القرن .

الكتابة التاريخية فى القرن الثالث الهجرى :

ومن أوائل القرن الثالث الهجرى الى أوائل الرابع ، نلحظ زيادة ملموسة فى المادة التاريخية عند المؤرخين المسلمين ، كما نلحظ الدقة فى تحرى مصادر هذه المادة . وقد ساعد على ذلك الأمر : استقرار دواوين الدولة العباسية وقيامها بواجباتها مثل دواوين : الانشاء والجند والخراج والعطاء والبريد ، الأمر الذى مكن الباحثين فى التاريخ من الانتفاع بها فى بحثهم وعملهم التاريخى . ولهذا وجدنا فى مؤلفات هذا القرن التاريخية مادة جديدة على ما كنا قد وجدناه فى كتب القرن الثانى ، فوجدنا معاهدات رسمية ومراسلات سياسية وبيانات احصائية كما وجدنا تأريخا لكبار رجال الدولة من الأمراء والوزراء والقواد والعمال والقضاة. كذلك طالعنا وصفا للحروب ووقائع الغزو على حدود الدولة صيفا وشتاء وغير ذلك .

وفى ذلك القرن تقدمت حركة الترجمة والنقل عن الفارسية واليونانية والسريانية ، على يد رجال النقل من أجادوا اللسانين من الفرس وأجادوا السريانية واليونانية من رجال السريان .

ويعتبر عبد الله بن المقفع رائد حركة النقل عن الفارسية الى العربية حين ترجم العديد من كتب الفرس الى العربية وخاصة حين ترجم كتابى : "خداينامة" ، و "آيينامة" . وتحكى الخداينامة قصة التاريخ القومى للفرس كما يراه أشرافهم ورجال دينهم ، وهى تحكى هذا التاريخ على طريقة الملاحم الأسطورية . كذلك تعكس "الآيينامة" تقاليد ومراسم طبقات عظماء الفرس .

كذلك ترجم المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذرى (ت ٢٧٩هـ) كتاب عهد الملك أردشير الفارسى الى العربية ، كما ترجم غيره من الكتب التى تناولت تاريخ الفرس القديم . وكانت الترجمات السريانية واليونانية فى ذلك العهد ترجمات ثقافية عامة حوت جزءا تاريخيا .

ولم تكن تحد مؤرخى هذا القرن مدرسة معينة أو اتجاه معين ، بل كتبوا فى شتى الموضوعات التاريخية مستفيدين بما توفر لهم فى هذا القرن من امكانات جاءت

نتيجة اتساع الدولة الاسلامية وتطور الأمور والأحوال فيها .

ومن أبرز مؤرخى هذا القرن :

البلاذرى (احمد بن يحيى بن جابر) : صاحب كتابىْ : فتوح البلدان ، وأنساب الأشراف ، وكان البلاذرى قد اكثر من الرحلة الأمر الذى أعطاه المادة التاريخيه الغزيرة ، وتظهر هذه المادة فى كتابه : فتوح البلدان الذى يعد سجلا للفتوح الاسلاميــة .

ابن قتيبه الدينورى (ت ٢٧٠هـ) : صاحب كتابىْ : المعارف، والأمامة والسياسة ، وكتاب المعارف يعد بحق دائرة معارف عامة وموسوعة تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية . ونجد فى هذا الكتاب فكرة كتابة التاريخ العالمى اذ يبدأ فيه بخلق العالم وينتهى به عند عصر الخليفة المعتصم بالله العباسى . أما كتابه : الامامة والسياسة فهو تاريخ للدولة الاسلامية منذ وفاة الرسول الى عهد الخليفة المعتصم العباسى .

أبو حنيفة الدينــورى (ت ٢٩٠ هـ) : وهو صاحب كتاب" الأخبار الطوال" ، الذى يعد كتابه نموذجا آخر للتاريخ العالمى ، فهو فى كتابه هذا روى تاريخا للبشرية منذ نشأتها حتى عهده ، وراعى فى روايته التسلسل الزمنى والتاريخى مع التركيز على بعض الحوادث والحركات وتناولها بشىء من التفصيل نظرا لأهميتها التاريخيه فى نظره .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) (ت ٢٩٢هـ) : وقد عبر هذا المؤرخ عن فكرة التاريخ العالمى فى كتابه " البلدان" نظرا لثقافته الواسعة وخبرته الكبيرة فى الادارة وطول عمله بها ، وكثرة أسفاره ولقد دون فى كتابه هذا ما شاهده بنفسه شأنه فى ذلك شأن باقى الرحالة . وفى كتابه الثانى الذى نسب اليه وعُرف " بتاريخ اليعقوبى " يقدم لنا اليعقوبى خلاصة وافية للتاريخ العالمى قبل الاسلام ، وللتاريخ الاسلامى حتى زمن الخليفه العباسى المعتمد على الله سنة

٢٩٢هـ . وقد راعى اليعقوبي في تاريخه التسلسل الزمني للأحداث ، وبدأ بالخليقة ثم تاريخ الأنبياء وتاريخ شعوب الفرس ، والشعوب القديمة كالبابليين والأشوريين والهنود واليونان والرومان وشعوب البربر والحبشة والزنج والصينيين والترك . وتحدث فيه عن تاريخ العرب قبل الاسلام الى أن وصل الى تاريخ الاسلام فرصده ناهجا المنهج التاريخي السليم ، مراعيا تسلسل الحوادث على نظام السنين ، وتوالى حكم خلفاء المسلمين . ولقد راعى اليعقوبي الدقة في أخباره والاتزان في معلوماته .

الطبرى (محمد بن جرير) ت ٣١٦هـ : ويمثل الطبرى في كتابه " تاريخ الأمم والملوك " أو " تاريخ الرسل والملوك " قمة ما وصلت اليه كتابة التاريخ عند المسلمين في فترة التكوين . وتقع هذه الموسوعة التاريخية الكبرى التي سجلها عمدة المؤرخين المسلمين الطبرى في أربعة عشرة جزءا ، كتبها في ٤٠ سنه [1] . ويعبر الطبرى في كتابه عن فكرتين أساسيتين في التاريخ هما : وحدة الرسالات ، وأهمية خبرات الأمة واتصالها على مرور الزمن . ويبدأ تاريخ الطبرى بالخليقة ويتناول الرسل والملوك في القديم ، ثم ينتقل الى تاريخ الساسانيين والعرب ، ثم يتناول التاريخ الاسلامي الى عام ٣٠٢هـ ، متبعا في ذلك نظام السنين وطريقة الاسناد والعنعنة ، طريقة أهل الحديث [2] .

مؤرخو القرن الرابع الهجرى :

تصل كتابة التاريخ الى مستواها الأعلى في هذا القرن بظهور كل من المؤرخين : مسكويه والتنوخي . وكل من ينتقل من دراسة الطبرى كمؤرخ الى دراسة مسكويه يجد أن مؤهلات الأخير للتأليف التاريخي أعظم بكثير من مؤهلات سلفه . وكانت لمسكويه ميزة كبيرة افادته ومدته بأخبار عصره ، وهي معرفته الشخصية بالرجال المشهورين الذين عاصرهم وصنعوا أحداث عصره في الدولة الاسلامية . وبذلك كان

---

(١) روى أن الطبرى كان يكتب من كتابه هذا كل يوم ٤٠ ورقة واستمر على ذلك مدة ٤٠ عاما ، انتهى في سرده عند سرد احداث سنة ٣٠٢هـ (على ابراهيم : استخدام المصادر ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٣٢) .

(٢) للطبرى تفسيره الكبير الشهير للقرآن ، الذى يضعه في مكانة عاليه بين علماء الحديث والتفسير .

مسكويه قادرا على الحصول على المعلومات التاريخية من مصادرها الأصليـــــــة ، بالاضافة الى معرفته بشئون الادارة والحروب في عصره مما يسّر له وصف هذه الأحداث وصف العارف والحكم على الأعمال حكم الواقف على دقائقها بحكم تقلده مركز ســـــام في بلاط البويهيين (1). وكان مسكويه منصفا في أحكامه متحريا للصدق والحـــق ، فلقد ذكر قسوة البويهيين وجرائمهم وقسى في حكمه عليهم رغم خدمته لهم .

وقد تناول مسكويه ، المتوفى سنة ٤٢١هـ ، الحوادث التى أعقبت ما دوّنـــه الطبرى في تاريخه وينتهى عند ذكر احداث سنة ٣٧٢هـ ، وذلك في كتابه الـــذى أسماه " تجارب الأمم وتعاقب الهمم " . ابتدأ مسكويه كتابه بما نقل اليه من الأخبـار بعد الطوفان ، ثم سيرة الرسول عليه السلام ، وتاريخ الخلفاء والملوك الى أوائـــل سنة ٣٧٢ هـ ، ورتبه على السنين الهجريـة .

وللتنوخى الذى عاش في هذا القرن ثلاث كتب تاريخية أشهرها :
" الفرج بعد الشدة " و " جامع التواريخ " ، واستطاع التنوخى أن يحصل على قدر كبير من المعلومات سردها في تاريخه مستفيدا من تواجده طيلة حياته في مجتمعـات مشاهير العراق وفارس .

وتلى كتب الطبرى ومسكويه والتنوخى في الأهمية كتب المؤرخ الجغرافى الشهــــير أبو الحسن على بن الحسين المسعودى (2) ، المتوفى سنة ٣٤٦هـ صاحب كتـــب : " أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان " ، "والتنبيه والاشراف " ،

---

(1) البويهيون : هم حكام الفرس الذين تسلطوا على أمر الخلافة العباسية وكانـــت لهم السيادة الفعلية في بغداد وبلاد العراق وفارس في الفترة ما بين سنـــوات ٣٣٤-٤٤٧هـ .

(2) ينتسب المسعودى الى عبد الله بن مسعود ، أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، لذا عرف بالمسعودى ، وقد عاش في بغداد وارتحل كثيرا وقضـــى اواخر ايامه في مصر والشام في عصر الاخشيديين .

و "مروج الذهب ومعادن الجوهر" .

الرحالـــة المؤرخـــون :

لقد أدت سهولة التنقل بين أرجاء الدولة الاسلامية ، بسبب وحدة هـــذه الدولة وتلاشى الحدود الطبيعية بينها ، الى أن قام طلاب العلم والمؤرخون خاصة بالرحلة فى طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ فى أماكن تواجدهم ، كذلك لرؤيـــة عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ومطالعة أخبارها . فوجد بذلك مصدر هام للمـــادة التاريخيه هو المشاهدة والمشافهة . وظهر من هذا النفر العالم الجوال عدد كبـــير أثروا التاريخ بما كتبوه ، وكانوا شهود عيان لما سطروه وعاينوه ، من أمثال : ناصـــرى خســـرو ، الادريسى ، المسعودى ، ابن جبير ، وابن بطوطـــة .

ناصرى خســـرو (ت ٤٧٦ هـ)

لقد جاب هذا الوزير الفارسى كثيرا من البلاد الاسلامية ، وأودع كتابه "سفرنامة" (زاد المسافر) كل مشاهداته فى تلك البلاد أيام حكم الفاطميين لمصر والشام . ولقـــد اعطانا هذا الرحالة المؤرخ صورة طيبة عن بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للبــلاد التى زارها ، فأضاف بذلك مادة جديدة للتاريخ لم يكن المؤرخون المسلمون يعتنون بهـــا .

الادريســـى (ت ٥٦٠ هـ) :

كذلك جاب أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسى الأندلس وشمال افريقيـــا وآسيا الصغرى وبعض بلاد أوربا وآسيا الصغرى وصقلية ، ووضع كتابا أسمـــــاه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " ضمّنه معظم مشاهداته . ومما يدل على أهميـــة هذا الكتاب أنه ترجم فى القرن السابع عشر الميلادى الى اللغة اللاتينية ، كمـــا أن علماء الغرب شهدوا بأنه لا يوجد كتاب جغرافى تاريخى يماثل كتاب الادريسى من ناحية قيمتـه التاريخيه والجغرافية .

ابن جبير: (ت ٦١٤هـ) :

كذلك قام الرحالة المؤرخ أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير برحلة الى بلاد العالم الاسلامى لأداء فريضة الحج ، فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . ووضع ابن جبير كتابا ضمنه هذه الرحلة التى لم تقتصر على بلاد مصر والحجاز ، بل شملت بلاد العراق والشام . واطلق ابن جبير على كتابه اسم : " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار "، المعروف باسم رحلة إبن جبير . وقد وردت فى كتاب الرحلة هذا معلومات طيبة عن الأحوال السياسية والاجتماعية لبلاد العالم الاسلامى زمن الحروب الصليبية .

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩هـ) :

ويعتبر الرحالة ابو عبد الله محمد بن عبد الله الشهير بابن بطوطة ، أعظم هؤلاء الرحالة المؤرخين ، ويعتبر كتابه " تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " الشهير باسم رحلة ابن بطوطة من أهم الكتب التاريخية نظرا لما تضمنه من معلومات تاريخيه طيبة ومشاهدات عينية رائعة وخاصة لبلاد الهند والصين .

تقدم الدراسات التاريخية عند المسلمين :

وتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس الى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأسا من التوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه . ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنا . وأخذ المؤرخون حظهم بين رجال الدولة الاسلامية كرجال لهم شأنهم ومظهرهم فى الحياة العامة السياسية والعقلية والأدبية .

وبرغم التفتت السياسى الذى تعرضت له الامبراطورية العباسية فى عهدها الثانى وانفصال اجزاء منها مكونا حكامها دويلات مستقلة استقلالا شبه كامل عن الدولة ولا يربطها الا رباط التبعية الروحية والسيادة الاسمية ، فان هذا التمزق السياسى لم يضعف التقدم الحضارى للدولة الاسلامية ، بل كان على العكس عاملا من عوامل

تقدم وازدهار حضارتها . ذلك لأن الوحدة الحضارية فى العالم الاسلامى استمرت قائمة ، ولم يوقف الانقسام السياسى ركب الزحف الحضارى . ولقد كان هؤلاء المستقلون بولاياتهم حراسا على هذه الحضارة وعاملين على الحفاظ عليها وعلى تقدمها بسبب تكوينهم المتحضر وبنيانهم المتمدن . ولذلك نجد الثقافات الاسلامية التى انتظمت فى العراق وما والاها وانحصرت فى عاصمة الخلافة بغداد تتوزع على الأمصار فى الدويلات التى استقل بها حكام العرب والفرس والترك . ولذلك ظهرت منارات حضارية متعددة تشع اشعاعها الحضارى وشاركت بغداد فى هذا الاشعاع . كانت هذه المنارات منارات للثقافة والفكر والأدب والفن فى دمشق والقاهرة وأصفهان والقيروان وقرطبة وغيرها . وخرّجت هذه المنارات الاسلامية العديد من علماء المسلمين فى شتى أنواع العلوم والمعارف ، حتى زاد عدد العلماء فى الأمصار وفاق الحصر .

ولقد أثّر كل ذلك فى كتابة التاريخ عند المسلمين تأثيرا كبيرا يتضح فى كثرة ما ظهر ، ابتداءً من منتصف القرن الثالث الهجرى فصاعدا ، من التواريخ المحلية وكتب التراجم وكتب الطبقات .

ومن التواريخ المحلية طالعتنا كتب : تاريخ مكة للأزرقى ، وتاريخ المدينة لابن شبه ،

- تاريخ فتوح مصر والمغرب ، لابن عبد الحكم ، المتوفى سنة ٢٥٧هـ .
- اخبار مصر وفضائلها ، لابن زولاق ، المتوفى سنة ٣٨٧هـ[1] .
- تاريخ بغداد وأعلامها ، للخطيب البغدادى ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .
- تاريخ دمشق وأعلامها ، لابن عساكر ، المتوفى سنة ٥٧١ هـ .

---

(١) وهو لا يزال محفوظا بالمكتبة الاهلية بباريس ، تحت رقم ١٨١٧ .
وابن زولاق هو اول مؤرخ لخطط القاهرة المعزية اذ أنه شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين عاما ، وانتهى فى هذا الكتاب عند عام ٣٨٦ هـ ، اى قبل وفاته بسنة .

- تاريخ المغرب وأعلامها ، لابن عذارى ، المتوفى فى القرن السابع الهجرى والذى أسماه : " البيان المغرب فى أخبار المغرب " و" تاريخ حلب" لابن العديم .
- تاريخ القاهرة وخططها ، للمقريزى ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ ، والمعروف باسم " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" .

أما كتب التراجم ، التى تتناول الترجمة لمشاهير رجال المسلمين فهى تشمل كتب الوفيات وكتب الطبقات . ومن كتب الوفيات : كتاب : وفيات الأعيان لابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ) . ولقد شمل هذا الكتاب ترجمة وافية لمشاهير الرجال فى الدولة الاسلامية منذ نشأتها حتى منتصف القرن السابع الهجرى . ولم يذكر ابن خلكان فى كتابه سيرة الصحابة ولم يترجم لأحد من التابعين الا جماعة يسيرة دعته الحاجة الى ذكرهم ، كذلك لم يترجم للخلفاء مكتفيا بما ورد عنهم فى كتب التاريخ المختلفة . وقد رتب ابن خلكان كتابه هذا على الحروف الأبجدية .

ولقد وضع المؤرخ ابن شاكر الكتبى ، المتوفى سنة ٧٦٤هـ ، كتابا ، على نفس نظام ابن خلكان ، أسماه : " فوات الوفيات " مسجلا فيه ما فات على ابن خلكان ذكره من الأعيان . وأكمل المجموعة المؤرخ "الصفدى" بكتاب أسماه : " الوافى بالوفيات " . ولقد غطت كتب التراجم الثلاثة هذه فترة القرون السبعة الاولى للاسلام وألقت بعض الضوء على مشاهير الشخصيات الاسلامية التى عاشت خلال هذه القرون .

ولقد أكمل الترجمة لاعيان القرن الثامن الهجرى المؤرخ " ابن حجر العسقلانى "(1) فى كتابه " الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة " كذلك ترجم لمشاهير القرن التاسع " السخاوى " (2) فى كتابه " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع " . ولقد استدرك السخاوى فى كتابه ما فات استاذه ابن حجر العسقلانى من أعيان المائة

---

(1) هو القاضى شهاب الدين احمد بن على ، اطلق عليه العسقلانى ، لكونه من عسقلان موطنه الأصلى ، توفى سنة ٨٥٢ هـ .

(2) هو الحافظ شمس الدين محمد بن زين الدين الشافعى ، نسب الى بلدة سخا الحالية ، وهى من مدن الدلتا المصرية بمحافظة كفر الشيخ .

الثامنة ، وسط فيه تاريخ أهل القرن التاسع من رجال ونساء ممن توفوا فى هذا القرن .

وظهرت مجموعة من الكتب التاريخية على عهود متفرقة تؤرخ لطبقات معينة من طبقات المجتمع الاسلامى ، أفادت كل متخصص فى فرعه وأعطته بعض الضوء على الشخصية التى يبحث عنها كل فى مجال تخصصه ومن هذه الكتب ما تخصص فى علماء الحديث مثل طبقات المحدثين ، ومنها ما تخصص فى علماء اللغة مثل : طبقات النحاة ، ومنها ما تخصص فى الشعر مثل طبقات الشعراء ، وما تخصص فى المذاهب مثل : طبقات الحنابلة وطبقات الشافعية الكبرى . ومنها ما تخصص فى طبقات الحكماء والفلاسفة وما تخصص فى طبقات الأطباء (١) ومنها أرخ للولاة وللقضاة (٢) وللوزراء (٣) ولغيرها من طبقات المجتمع المتعددة .

وظهرت أيضا كتب تاريخية وضعها مؤرخوها تواريخ وسيرة للشخصيات التاريخية الهامة فى الدولة الاسلامية منها : كتاب خلافة المقتدر بالله للجهشيارى ، وأخبار الراضى للصولى ، وسيرة أحمد بن طولون للبلوى وسيرة صلاح الدين لابن شداد المعروفة باسم "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ".

والى جانب هذه الكتب التاريخية المتخصصة ، ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى والمسعودى ومسكويه . فقد ظهر بعد هؤلاء طائفة من المؤرخين المسلمين نهجوا نهجهم فى كتابة تاريخ اسلامى عام من أمثال : أبى شجاع ، الخطيب البغدادى ، ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) ، ابن الأثير

---

(١) مثل كتاب " عيون الانباء فى طبقات الأطباء " للطبيب ابن أبى أصيبعة ، المتوفى سنة ٦٦٧هـ .

(٢) مثل كتاب الولاة والقضاة للكندى ، المتوفى سنة ٣٥٠هـ .

(٣) مثل كتاب " تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء " لابى هلال الصابى ، المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

(ت ٦٣٠ هـ) [١] ، النويرى (ت ٧٧٤هـ) ، ابن كثير (ت ٧٧٥هـ) ، ابـــن الفرات (ت ٨٠٧هـ) ، ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) [٣] ، القلقشندى (ت ٨٢١هـ) ، المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) [٤] ، العينى (ت ٨٥٥هـ) ، ابوالمحاسن (ت ٨٧٤هـ) ، السخاوى (ت ٩٠٢هـ) ، السيوطى (ت ٩٠٢هـ) ، وابن اياس (ت ٩٣٠هـ) [٥] .

فلسفة التاريخ عند المسلمـــين :

تقسمت الامبراطورية الاسلامية وتفتت سياسيا منذ منتصف القرن الثالـــث الهجرى ، واستتبع التقسيم السياسى ضعف الخلافة واجتراء أعدائها عليها ، ورغــم قوة الحكام المستقلين بولاياتهم . الا أن هذه القوة لم تستمر فى أعقابهم فســادت بذلك فترات من الضعف السياسى فى هذه الدويلات التى استقلت عن جسم الخلافة . وكان من أهم أسباب هذا الضعف ذلك الصراع الذى كان ينشب بين أفراد البيـــت الحاكم على تلك السلطة الأمر الذى يؤدى الى الانقسام الداخلى والحروب الداخلية. فما أن استهل القرن الخامس الهجرى الا وكانت هذه الدويلات الاسلامية تشاطـــر الخلافة الضعف والتمزق ، الأمر الذى أطمع الأعداء فى الجميع وكانت بقايا الدولـــة البيزنطية (الروم) تتربص الدوائر بالمسلمين كذلك كان حكام أوربا المسيحيين . واستغل الاعداء فرصة الضعف العامة فى الدولة الاسلامية فهاجم الروم شمال الشام واستولـــوا عليه ، وأغار مسيحيو الغرب على العالم الاسلامى فى القرنين الخامس والســـادس

---

(١) وهو صاحب الموسوعة التاريخية الهامة المعروفة باسم " الكامل فى التاريـــخ "

(٢) هو الحافظ العماد ابن كثير صاحب كتاب " البداية والنهاية فى التاريـــخ "

(٣) العلامة المسلم الشهير صاحب كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر " المكـــون من خمسة أجزاء ، وعُرف الجزء الاول منه باسم " المقدمة " .

(٤) هو تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، صاحب كتاب الخطط الشهـــير ، واتعاظ الحنفا ، والسلوك ، والتاريخ الكبير المقفى وغيرها .

(٥) هو ابو البركات محمد بن احمد ، صاحب كتاب تاريخ مصر ، المعروف باسم : "بدائـع الزهور فى وقائع الدهور " ، وقد وصل فيه بالأخبار الى الفتح العثمانى للعالـم الاسلامى .

المهجريين فى حروب أطلق عليها الحروب الصليبية ، فاحتل أولئك الصليبيون بلاد الشام ، وأقاموا لهم فيها اربع امارات صليبية هى : انطاكية ، الرها ، طرابلس وبيت المقدس . وكان ذلك اول استعمار أوربى غربى لبلاد العالم الاسلامى . كذلك استغل الفرصة مسيحو الغرب وهاجموا مسلمى الأندلس واقتطعوا منهم الأقاليم تلو الآخر .

ولم تكد هذه الغمة تنزاح عن مشرق العالم الاسلامى حتى دهم هذا العالم خطر اشد منه واكثر وطأة ، وهو خطر المغول والتتار . ولقد هجم هؤلاء المغوليون على بلاد العالم الاسلامى فى موجات عارمة متلاحقة كهجوم أسراب الجراد على كل ما هو أخضر ، فأيبسوا كل شىء وداسوا تحت أقدامهم المتبربرة الحضارة الاسلامية ، وحطموا جهود الانسانية الطويلة للبناء والعمران . وأسقط هؤلاء المغول بغداد واحرقوها وقتلوا معظم سكانها (سنة ٦٥٦هـ) ، حتى الخليفة العباسى ، المعتصم بالله ، قتلوه واسقطوا الخلافة العباسية . وخلّف المغول وراءهم فى بلاد العالم الاسلامى الخراب والدمار وبحور الدماء .

وفى نفس الوقت تتابع سقوط مدن الأندلس الاسلامية فى يد صليبيى أسبانيا ، تساقط اوراق الخريف ، حتى انحصر ملك المسلمين فى آخر قلعة لهم فى تلك البلاد وهى قلعة بنى الاحمر فى غرناطة . وبذلك دخل تاريخ العالم الاسلامى فى مأساة دامية وفى طور جديد يختلف عن الأطوار السابقة له اختلافا كبيرا .

واتضحت صروف الزمن وعبر التاريخ بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام ، فكان طبيعيا ألا يقف مؤرخو المسلمين بمنأى عنها ، وكان طبيعيا أن يتعرض التاريخ لها ، وأن ينحو المؤرخ فى تعرضه لها من تلقاء ذلك كله ، منحنى فلسفى عميق فيتعرف على علل الحوادث وأسباب قيام الدول وعوامل ازدهارها ويعلل سبب سقوطها وانهيارها . كذلك يتعرض المؤرخ المسلم لمظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك من المواضيع الجديدة التى أنتجتها المحن والكوارث التى تعرض لها العالم الاسلامى . وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخى المسلمين دون منازع ، ابن

خلدون ، فى مقدمة تاريخه الشهيرة ، التي لم يكتب مثلها فى الاسلام على الاطلاق ، والتى تناولت الموضوعات التى أشرنا اليها وغيرها ، كما تناولت علم التاريخ ودراسة منهج البحث فيه والنظرة اليه والحكم عليه باعتباره علما قائما بذاته أو فنا من أرقى الفنون .

ولقد نضجت فكرة التاريخ عند العرب فلم يكتفوا بسرده والكتابة التاريخية ، بل ألفوا فى العلم نفسه وفى أصوله وفيما يجب أن يتوفر فى المؤرخ . واذا كان ابن خلدون قد تعرض فى مقدمته لدراسة علم التاريخ ، فالحق يقال أنه لم يكن اول المؤرخين المسلمين الذين تصدوا لذلك . فلقد تصدى لهذا الأمر كل من المسعودى والأصفهانى والصفدى وابن الأثير وابن الجوزى ، ثم السخاوى من بعده . لكن دراسة ابن خلدون والسخاوى لهذا العلم جاءت أعمق واكثر نضجاً من دراسة سابقيهم .

عرّف المسعودى (1) علم التاريخ فقال انه : "علم يستمتع به العالم والجاهل ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، فكل غريبة منه تعرف وكل اعجوبة منه تستطرف ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وادب سياسة الملوك وغيرها منه تلتمس ، يجمع لك الاول و الآخر والناقص والوافر والبادى والحاضر والموجود والغابر ، وعليه مدار كثير من الأحكام وبه يتزين فى كل محفل ومقام " .

وقال الاصفهانى عن التاريخ فى مقدمة كتابه " الأغانى " :

" ان القارئ اذا تأمل ما فى التاريخ لم يزل متنقلا من فائدة الى فائدة ومنصرفا منها بين جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار يجمل بالمتأدب معرفتها وتحتاج الأحداث الى دراستها " (2) .

وقال ابن الجوزى فى مقدمة كتابه " المنتظم " عن التاريخ وفضله :

---

(1) مروج الذهب ، طبعة القاهرة ١٣٤٦هـ ، جـ١ ، ص ٥٤ .

(2) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٣٩ .

" انه يطلع على عجائب الأمور وتقلبات الزمن وتصاريف القدر وسماع الأخبار "(١)

وقال ابن الأثير في كتابه الكامل : " ان فوائد التاريخ كثيرة ومنافعه الدنيوية والأخروية غزيرة "(٢) .

أما ابن خلدون (٣) ، فالتاريخ في نظره :

" فن من الفنون ، التي يتداولها الأمم والأجيال وتشد اليها الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، يؤدى الينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال وعمروا الأرض حتى نأى بهم الارتحال . وأن فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوا . واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم واتبعوها وأدوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ."

ويعظم ابن خلدون من شأن التاريخ بقوله : (٤)

" واعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها الى الحق وينكبان به عن المذلات والمغالط لأن الأخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٤٤ .
(٢) نفسه ، ص ٤٤ .
(٣) المقدمة ، القاهرة ١٣٢٠هـ ، ص ٣ .
(٤) المقدمه ، ص ٨ ، ٩ .

الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومذلة القدم والحيد عن جادة الصدق ".

ما يحتاج اليه المؤرخ في نظر ابن خلدون (١) :

اولا ـ الثقافة العامة :

يقول ابن خلدون : " يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال . والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من خلاف ويقلل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر".

ثانيا ـ ضرورة مراعاة المؤرخ للظروف التي يقع فيها كل حدث ومراعاة الفترة التاريخيه التي وقع فيها ،

وهو في ذلك يقول :

" ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام ، وهو داء شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة ".

ثالثا ـ يجب أن تكون عند المؤرخ النظرة التاريخية العالمية ، ويجب أن يؤمن بفلسفة التاريخ ويعي الحكمة من وقوع هذه الأحداث :

" وانما التاريخ هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل ، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه اكثر مقاصده وتتبين به أخباره " (٢) .

رابعا ـ ضرورة اهتمام المؤرخ بأمر الاجتماع الانساني ، وضرورة أن تكون للمؤرخ هذه النظرة الاجتماعية التي تتوفر عند عالم الاجتماع .

(١) المقدمة ، ص ٢٧ (٢) المقدمة ، ص ٣١ .

يقول ابن خلدون :

" واعلم أن حقيقة التاريخ هو خبر من الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الأحوال " (١) .

خامسا – ضرورة تملك المؤرخ لملكة النقد ، وتحكيم النظر وعمل القياس وعدم أخذ الأخبار كقضايا مسلم بها .

يقول ابن خلدون : " وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل والمغالط فى الحكايات والوقائع واعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط " (٢) .

السخاوى وعلم التاريخ (٣) :

لقد اهتم السخاوى بعلم التاريخ والتأليف فيه وبيان أصوله وبيان ما يجب أن يتوفر للمؤرخ ، ولقد وضع هذا المؤرخ فى كل ذلك كتابا أسماه : " الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ " " وقد أقام المؤلف بهذا الكتاب نصبا قيما لعلم التاريخ عند العرب " ، والسخاوى يعرض فى هذا الكتاب لعلم التاريخ عند العرب عرضا جميلا ويدافع عنه ويدافع عن الرجال المشتغلين به .

وبدأ السخاوى كتابه بتعريف علم التاريخ لغة واصطلاحا وموضوعا ، ثم انتقل الى بيان فوائد هذا العلم وغايته وحكمه ، ثم قام بتقبيح من ذموا هذا العلم ،

(١) المقدمة ، ص ٣٤ . (٢) المقدمة ، ص ٩ .
(٣) هو زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن ابى بكر القاهرى الشافعى ، المنتسب الى بلدة سخا فى لتا مصر ، والمولود سنة ٨٣١هـ والمتوفى سنة ٩٠٢هـ .

وأورد ذكر أهم المؤرخين العرب الذين تفهموا هذا العلم وأجادوا الكتابة فيه .

وفى مدح السخاوى للتاريخ نجده يقول (١) : " والتاريخ يتناول أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم ، فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم والحكماء وكلامهم والزهاد والنساك ومواعظهم ، عظيم الغناء ، ظاهر المنفعة ، فيه ما يصلح الانسان به أمر معاده ودينه وسريرته فى اعتقاداته وسيرته فى أمور الدنيا وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى . وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادئ الدول واقبالها ثم انقراضها وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها وأشباهها أبدا فى العالم ، غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه فينغزر عقله ويصير مجربا غير غر ولا غمر " .

ويزيد السخاوى من عظمة قدر التاريخ والمؤرخين بقوله (٢) :
"ولمزيد رغبة ذوى الأنفس الذكية فى التاريخ قال أبو على الحسن بن احمد بن عبد الله بن البناء ، صاحب رسالة السكوت وغيرها ، والمتوفى سنة ٤٧١هـ :
ليت الخطيب البغدادى ذكرنى فى تاريخه ولو فى الكاذبين".

ويبين السخاوى احتواء علم التاريخ لعديد من العلوم الأخرى بقوله (٣) :
" ويستفاد من أنباء هذا الفن ما لعله يدرج فيه علوم أخر كالسياسة ، وهو العلم الذى يتعرف منه أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات الفاضلة والمروية وتوابع ذلك وكعلم الأخلاق الذى يعلم منه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها ، وكعلم تدبير المنزل الذى يعلم منه الأحوال المشتركة بين الانسان وزوجه وولده وخدمه ووجه الصواب فيها" .

---

(١) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ ، ص ٣٣ .
(٢) السخاوى : الاعلان ، ص ٣٣ .
(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ .

وعظّم السخاوى أجر المشتغلين بهذا العلم لعظيم ما يقدمون به فقال[1] :
" وغاية هذا العلم هو الترجى لرضا الله ، فانه (سبحانه) لا يضيع أجر من أحسن عملا " .

ولقد وضع السخاوى شروطا أوجب توافرها فى المؤرخ منها :[2]

١- " العدالة مع الضبط التام الناشئ عنه مزيد الاتقان ، والتحرى سيما فيما يراه فى كلام كثير من جهلة المعتنين بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام " .

٢- " كذلك لا بد أن يكون عالما بطريق النقل حتى لا يجزم الا بما يتحققه فان لم يحصل له مستند معتمد فى الرواية لم يجز له النقل ، وليكن بذلك محترزا عن وقوع المجازفة والبهتان والافتئات والعدوان " .

٣- " ولا يجب أن يكون جاهلا بمراتب العلوم ، سيما الفروع والأصول " .

٤- " ويحتاج المؤرخ مصاحبة الورع والتقوى " .

• • •

وانا نرى بذلك مما تقدم أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ التاريخ للسخاوى قد نما علم التاريخ عند المسلمين وتفرع وأزهر وأثمر ، فلما نضب معينه بانحلال الحياة الاسلامية العامة المستقرة لما تعرضت له هذه الحياة من خطوب وأحداث جسام جرى عليه ما يجرى على الاحياء من حكم البلاء والفناء .

هذا عن حال التاريخ عند المسلمين ، نشوءا واكتمالا وهرما وانقطاعا .
اما عن الطريقة العلمية التى اتبعوها فى كتابته : فانا نجد أن التاريخ بدأ عندهم ، كما رأينا ، فرعا من علم الحديث ، وان المؤرخين المسلمين كانوا فى البدء ،

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .

محدّثين ، فتأثر لذلك بطريقة المحدثين في جمع الرواية واسنادها . فكان أهل السيرة والمغازى والاخباريين يجمعون مأثور الروايات ويدونوها مسندة ومعنعنة الى مصدرها الأصلى ، وهو عادة شخص عدل عندهم له علم مباشر بالواقعة المدونة كأن يكون عاينها أو اشترك فيها ، كما كانت الحال فى رواية أخبار السيرة والاسلام أو أخذها من مصادرها الأصلية ككتاب قديم ضاع او من بعض أهل البادية . وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة وأخبار العرب قبل الاسلام. فكان النقد عندهم ، أو الجرح والتعديل ، كما كانوا يسمونه ذاتيا منصبا على الرواة لا موضوعيا منصبا على المرويات . هذه الطريقة ضمنت لهم ، الى حد بعيد ، صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة وحوادث صدر الاسلام .

واذا كان الاسناد عندهم هو أساس نقد الأخبار ، فقد كان التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام هو أساس ضبطها . على أن نظام التوقيت عندهم بدأ ضعيفا ، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع خلط شديد واختلاف كبير فى توقيته .

الا أن التوقيت انضبط عندهم ، مع مرور الوقت ، بسبب تحرى الدقة فى ذلك والأخذ عن المصادر الرسمية الصحيحة .

عرض الرواية التاريخية عند المؤرخين المسلمين :

جمع أصحاب السيرة والمغازى والأخباريون الأوائل الروايات التاريخية ورتبوها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتبا تشبه أبواب الحديث وأبواب التفسير ، ثم تحولوا عن ذلك سالكين فى عرض حوادثهم طريقتين ، أولاهما وأقدمهما : الترتيب على السنين ، فهم يفتتحون كتبهم التاريخيه بمقدمة فى التاريخ القديم يبدؤنها عادة بخلق العالم ونزول آدم وحواء الى الأرض ، ثم ذكر حادث الطوفان ، ثم سرد سيرة الأنبياء حتى الوصول الى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . ثم ذكر الأحداث بعد الهجرة عاما بعد عام . والهيثم بن عدى (ت ٢٠٧هـ) ، هو أول من صنف هذا النمط فى كتابه : " التواريخ بالسنين من آدم الى الهجرة " . ثم سار على نهجه بعد ذلك كل من الطبرى وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفدا وغيرهم .

والطريقة الثانية : سرد الحوادث على هيئة قصة منسقة مرتبة على العهود ، وقد جرى عليها كل من : اليعقوبي ، المسعودي ، وابن خلدون وغيرهم .

وكان أسلوب هؤلاء المؤرخين في كلا الحالتين عربيا سهلا واضحا ، وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة .

وتتلخص أوجه النقص في طريقة المؤرخين المسلمين في أمور ثلاثة هي :

الأول : ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام (١) .
الثاني : عدم عنايتهم بالتأريخ للعامة ، وقصر التأليف التاريخي ، في الغالب ، للخاصة من ملوك وحكام وسلاطين .
الثالث : عدم التعمق في مضمون الأحداث والنفاذ الى أسرارها .

على أنه مهما قيل في قصور طريقتهم من الناحية العلمية ، فان المؤرخين المسلمين نهجوا نهجا علميا أدق من نهج مؤرخي أوربا المسيحيين المعاصرين لهم . ولقد شهد الناقدون للمؤرخين المسلمين أنهم أول من ضبط الحوادث بالاسناد وأكدها بالتوقيت الكامل ، وانهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه واكثروه الى درجة لم يلحق بهم فيها من سبقهم من مؤرخي اليونان والرومان أو عاصرهم من مؤرخي الغرب المسيحي . كذلك فهم أروع من كتب في فلسفة التاريخ وأول من كتب في أسس علم الاجتماع ، وأول من أرخ للتاريخ وأن غالبيتهم ، قد حرصوا على العمل ، جهد طاقتهم ، والالتزام بأول وأساس واجبات المؤرخ وهو الصدق في القول والنزاهة والأمانة في الحكم .

( ) ( ) ( )

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ٦٩ .

الفصل الرابع

التاريخ فى العصر الحديث

التاريخ عصر النهضة الأوربية :

مع مطلع العصر الحديث ، تطلع المؤرخون فى أوربا الى تغيير منهج دراستهم التاريخى ، ذلك أنه لم يعد اللاهوت يلقى قبولا عندهم وذلك لتغير مفاهيم العصر عن مفاهيم العصور الوسطى . وفى عصر النهضة أصبح المؤرخ الأوربى غير مهتم بتاريخ الكنيسة وسيرة السيد المسيح المقدسة ، فقد زهد هذا الأمر ، وتطلع الى كل ما هو جديد فى شتى مجالات الدراسة والعلوم . وفى مجال التاريخ أصبحت النظرة التاريخية مركزة على تقدير الانسان بوصفه المحور الأساسى الذى يجب أن يرتكز عليه التفكير . فأصبحت دراسة التاريخ فى عهد النهضة هى دراسة تاريخ الدوافع الانسانية بوصفها تعبيرا أساسيا عن الطبيعة الانسانية . وكانت النتائج الأولى الايجابية لتغير النظرة الجديدة عن نظرة ومفاهيم العصور الوسطى هى العمل على تنقيح المادة التاريخيه التى كتبت فى تلك العصور تنقيحا تاما من كل ما علق بها من خرافة واتصل من أساطير .

وفى عصر النهضة لقى التاريخ ودراسته عناية ورعاية من حكام أوربا واستعانوا بأدباء عصر النهضة العظام فى اعادة كتابة التاريخ وتولت الهيئات الحكومية فى كل دولة من دول أوربا مهمة الاشراف على كتابة تاريخها ، وكانت ايطاليا هى أول من شهد هذا الأمر بصدد التاريخ سابقة فى ذلك غيرها من دول أوربا ، شأنها فى التاريخ شأن سبقها فى سائر ألوان المعرفة . ولذلك فقد ولد التاريخ فى ثوبه الجديد فى ايطاليا مهد المدنية الجديدة ومهد حركة البعث والاحياء ، فكان ظهور المؤرخين الأدباء الانسانيين من أمثال : لورنزو ، جيشاردين ، وميكيافيللى .

ويُعد "لورنزو ڤالا" Lorenzo Valla من كبار علماء النهضة فى ايطاليا ، وهو ناقد جرئ وكاتب ومؤرخ لاذع ، وأشهر كتبه كتابه المسمى "بمنحة قنسطنطين" Donation of Constantine.

أما نيقولا ماكيافيللى Niccolo Machiavelli (١٤٦٩_١٥٢٧) فهو كاتب ايطاليا الشهير وسياسيها البارع والمؤرخ الفلورنسى • وهو صاحب كتاب " الأمير Il Principe الذى استمده من ظروف ايطاليا المضطربة ، وهو عبارة عن اراء ونصائح للحاكم كى يخرج بايطاليا من حالة الفوضى الى حياة الاستقرار والسلام • ودعا فى كتابه الى اتباع كافة الوسائل ، حتى المنافية لقواعد الأخلاق والدين ، لبلوغ الغايات النبيلة والتى تصون مصلحة الدولة ، وفى هذا تقول فلسفته " بأن الغاية تبرر الوسيلة " ودعا الى تركيز السلطة فى يد الحاكم القوى فى فترة مؤقتة تنتهى الى الحياة الديمقراطية الحرة القائمة على الانتخاب العام ، لأن اشتراك الرؤوس الحرة فى تدبير شئون الدولة هى الوسيلة الوحيدة لصلاح المجتمع (1) ، ومن مؤلفاته كتاب فى " تاريخ فلورنسا " وفيه عمل على ايجاد حل لمشكلات السياسة بدراسة أحداث التاريخ وقد تأثر بفلسفته ماكيافيللى ساسة ومؤرخى أوربا المحدثين جميعهم بوجه عام •

ويجئ جيشاروين Gishardine (١٤٨٣_١٥٤٠) فى المرتبة التالية من ناحية المكانة التاريخية بعد ماكيافيللى ، وهو الذى كتب كتابا لتاريخ ايطاليا تناول فيه أحداثها من سنة ١٤٩٤ حتى سنة ١٥٣٢ •

وبظهور أفكار علماء ومؤرخى عصر النهضة ، أجيبت الفكرة القائلة بأن التاريخ ليس علما نظريا وانما هو علم له قيمته العملية ، اذ هو الذى يعلم الناس منه السياسة وكيفية الحياة العمليــة السليمة فوق هذا الكوكب • ولقد اجتاحت العقلانية الحقل التاريخى فى عصر النهضة وأبعدت عنه الخوارق والمعجزات ، وظهر هذا جليا فيما صدر من كتب وابحاث تاريخيه آنذاك • واستهدف المؤرخون فى كتاباتهم تثقيف الناس سياسيا ، بهدوء وتعقل ، بدلا من القاء الخطب والمواعظ • وتركز بحث المؤرخين حول الدولة وكيفية قيادتها والنهوض بأمرها ، فأصبح المؤرخ بذلك من كبار قادتها وموجهيها • ويؤخذ على التاريخ

---

(1) حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، القاهرة [illegible] ، ص [illegible] ، [illegible] رقم (١) •

فى عصر النهضة أنه لم يهتم بالجماهير ولا بأحوال الشعب ومعاناتها ووضع الحلول لتخطى هذه المعاناة ، فبات بذلك التاريخ ارستقراطيا بورجوازيا ، محصورا فى بلاط الأمراء والنبلاء وقصور الحكام . واقتصر لذلك بالحديث عن هذه الطبقة المرفهة والتأريخ لأهم أعمالها . على هذا النمط سار مؤرخو النهضة فى ايطاليا ، وحذى حذوهم فى ذلك المؤرخون الأسبان والفرنسيون . وكان لكل رجل دولة من هذه الدول ، تبعا لذلك ، مؤرخها الرسمى الخاص . ففى فرنسا نجد الملك لويس الرابع عشر يقلد الكاتبين العظيمين الشهيرين : بوالوا Boilois وراسين Racine وظيفة التاريخ .

ولقد وضع راسين مؤلفاً تاريخيا بعنوان " المقدمة المتكاملة " Oéuvres commplètes وجاء فى مقدمة كتابه العبارة التالية :

"ان أول ما ينبغى على ما يريد الكتابة فى التاريخ هو أن يختار موضوعا جميلا ممتعا " .

كذلك منح الشاعر الثائر " ڤولتير " (١٦٩٤ــ١٧٧٨) لقب المؤرخ بعد ظهور كتابيه : " تاريخ شارل الثانى عشر " سنة ١٧٣١ ، "وعصر لويس الرابع عشر " سنة ١٧٥١ . وقد اتبع الأمراء الألمان هذا التقليد ، فاعتمدت أسرة " وولف " Wolf فى هانوڤر الفيلسوف والعالم الشهير " ليبنتز " Lipintiz (١٦٤٦ــ١٧١٦) مؤرخا لها .

تدوين التاريخ الديكارتى :

ولقد أطلق بعض العلماء على التدوين التاريخى فى بداية القرن السادس عشر ، فى عصر النهضة ، بتدوين التاريخ الديكارتى ، لأنها استندت على نفس الأسس التى استندت عليها فلسفة الفيلسوف الشهير " ديكارت " ، وهى الشك العلمى والالتزام المطلق بمبادئ النقد والتحليل .

وكانت قد قامت فى جميع الأقطار الأوروبية هذه الحركة الجديدة على اكتاف جيل واحد ، هو الجيل الذى أبصر النور عند ظهور كتاب ديكارت الفلسفى : "بحث فى المعرفة" ،

وعلى منهاج هذا الكتاب استبعدت شواهد التاريخ المبنية على مجرد العقيدة وجعل الشك أساسا للدراسة وواسطة للمعرفة .

والفكرة التاريخية الرئيسية التى قامت عليها هذه المدرسة الجديدة هى : أن ما كتب نقلا عن المصادر التاريخيه لا ينبغى أن يسلم به دون أن يخضع لعملية نقد يستند الى منهج بحث يتألف من ثلاثة قواعد على الأقل هى :

(١) قاعدة ديكارت الضمنية ، وهى أنه لا يوجد مصدر تاريخى يحتم علينا الاقتناع بما نعتقد فى استحالة حدوثه .

(٢) القاعدة التى تقول بأن المصادر المختلفة ينبغى أن تتقابل مع بعضها وأن يتم التنسيق بينها .

(٣) القاعدة التى تذهب الى القول بأن المصادر المكتوبة ينبغى أن تراجع عن طريق المصادر الشفاهية ، ومصادر غير المادة المكتوبة .

مهاجمة منهج ديكارت :

هاجم عدد من المؤرخين منهج ديكارت الشكى فى التاريخ ، ودافعوا عن التاريخ بكونه ضرب من ضروب المعرفة الصادقة المشروعية ، وأنه حقائق ولا يعتمد على افتراضات فلسفية هى مثار الشك أو الجدل . وجاء هذا الهجوم والاعتراض على منهج ديكارت التاريخى من جانب كل من المؤرخين الفلاسفة :

ڤيكو ، لوك ، هيوم ، ڤولتير ، وجيبون

ولقد ناقش المؤرخ والفيلسوف الايطالى باتيستا ڤيكو[1] Giovanni Battista Vico. (١٦٦٨ـ١٧٤٤) فكرة ديكارت عن التاريخ فى مؤلفه العظيم : " أسس علم جديد حول

(١) ولد فى نابلى وعلم فى جامعتها . أهم مؤلفاته : أسس علم جديد " ، و" القانون العالمى " ، درس العلاقة بين تاريخ القانون وتطور العقل وتاريخ البشرية (حسن عثمان : منهج البحث ، ص ٤٦ ، حاشية رقم (٢)) .

الطبيعة العامة للشعوب" ، الذى ظهر فى عام ١٧٢٥ • وقصد ڤيكو التاريخ بالعلم الجديد ، واعتبر التاريخ فى هذه الرسالة الجامعة فرعا من علم واسع شامل لكل شئون المجتمع الانسانى • وذهب الى أن منهج بحث التاريخ يجب أن يقوم على أصول منطقية دقيقة • وهو واقع حقيقى يجب أن يدرس على ذلك المفهوم لا على مبدأ الشك وبواسطة الجدل •

وقال "لوك " بأن التاريخ ضرب من ضروب المعرفة الصادقة المشروعية وأنه يستند فى الحقيقة ، على مشروعية أقوى من تلك التى تستند عليها أغلبية العلوم الأخرى ، لأنه لم يأخذ على عاتقه اكثر مما رسم لنفسه من حدود ، فهو يعتمد على واقع حى لا على شك واهم •"

ويعتبر هيوم (١٧١١–١٧٧٨) بانتاجه التاريخى العظيم ، وكذلك معاصره الشاعر الفرنسى الشهير " ڤولتير " (١٦٩٤–١٧٧٨) صاحب العقل الجبار والروح الساخرة والنشاط المنقطع النظير ، أئمة مدرسة جديدة فى التفكير التاريخى ، مدرسة تؤمن بالحقيقة التى يتوخى معرفتها هذا العلم ويحاول اثباتها للناس لكى تكون هاديا ومرشدا لهم فى حياتهم •

ويأتى ڤولتير فى مقدمة طراز جديد من المؤرخين ، ثائرا ضد الأفكار والأنماط المعتادة لمن سبقه من المؤرخين ، فلقد قدم تاريخا متقدما علمانيا طبيعيا يعنى بحياة روح الشعوب وفنونهم وطموحهم وسياستهم • ويتعامل ڤولتير فى كتابيه العظيمين : (عصر لويس ١٤) ، (مثال فى أخلاق وعادات الأمم) ، يتعامل بطريقة فلسفية واضحة مع تاريخ العالم • وبرغم احتواء كتاباته على أفكار عنيفة فان ڤولتير كان يؤمن بأن يحرر المؤرخون التاريخ [1] من الأساطير وأن يتحروا الحقيقة التاريخيه فقط ويستشهدوا بها يقول ڤولتير : " التاريخ هو رواية الحوادث المعتبرة حقيقة وهو نقيض الخرافة " [2].

---

(١) Fritz Stern : The Varieties of History, Cleveland, U.S.A., 1971, p. 35.

(٢) أورد ڤولتير ذلك فى دائرة المعارف العامة (هورس : قيمة التاريخ ، ص ٤٤) •

وينتمى المؤرخ الانجليزى " ادوارد جيبون " Edward Gibbon (١٧٣٧ــ١٧٩٤) ، صاحب كتابه الشهير : " انحلال وسقوط الدولة الرومانيـــــــة " لنفس مدرسة فولتير ، ويمتاز جيبون بأسلوبه الأدبى وتحرى الدقة ، قدر الامكان ، فـــى استخلاص الحقائق التاريخيـــة •

الثورة الفرنسية والتاريـــــــخ :

واثناء انشغال هذه العصبـــة الممتازة من المؤرخين العقلانيين بعملهم اندلـــع لهيب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، وكان اندلاعها حدثا هاما توقف له العالم مذهـــولا لأحداثه ولتطورات هذه الأحداث السريعة ونتائجه الغير متوقعة • ووقف ، مع توقـــف العالم ، تيار التاريخ فى مساره المرسوم ، وتحول عن وجهته الى وجهة أخرى شأنه فـــى ذلك شأن الكثير من العلوم والفنون •

ورأينا فى ذلك الوقت لفيفا من ناشئة المؤرخين ، وبخاصة فى ألمانيا ، يكتـــب بأسلوب حماسى ثائر واقع تحت تأثير كتابات فيلسوف الثورة الفرنسية وكاتبها الشهـــير " جان جاك روسو " (١٧١٢ــ١٧٧٨) وتحت تأثير آراء كتابه " العقد الاجتماعـــى " La Contract Sociale الذى يعده الفرنسيون " انجيل الثورة " •

ويجيء بين هؤلاء المؤرخين : المؤرخ والشاعر السويسرى " هــردر " J.Herder صاحب كتاب : " خواطر فى فلسفة تاريخ الانسانية ، والمؤرخ السويسرى " مولـــــر " J. Muller (١٧٥٢ــ١٨٠٩) صاحب كتاب " الحلف السويسرى " ، والمـــؤرخ شيلر F. Schiller الألمانى الشهير (١٧٥٩ ــ ١٨٠٥) ، والمؤرخ الألمانـــى الشهير أيضا : " شلوسر F. Schlosser (١٧٥٦ــ١٨١١) ، والفيلســوف الألمانى المؤرخ " كانت " Kant ، ويأتى فى نهاية هذه القائمة أشهر الفلاسفـة الألمان واكبرهم " هيجل " Higgel [1] •

الا أن الربع قرن من الزمان الذى هو عمر الثورة الفرنسية وحروب الثـــــورة وعصر نابليون (١٧٨٩ــ١٨١٤) كانت فترة فوران وغليان سياسى غير ملائمة للبحـــث

(١) هونشـــو : علم التاريخ ، ص ١٠٨ •

التاريخى ، فالحوادث كانت أعجل من أن تسمح بالتفكير ، والأهواء كانت أجمح من أن تأذن باستخلاص المعانى ، وتغير الآراء كان أسرع من أن يضمن تكوين فكر من الأفكار أو مذهب من المذاهب •

ولما جنحت أوربا مرة أخرى ، بعد مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ وهزيمة نابليون الى السلم ، وقد حملها الى ذلك الجهد والأعياء وخراب الحروب ودمارها ، حدث رد فعل قوى لتعاليم روسو ولأفكار الثورة الفرنسية الجديدة • فحدثت نكسة فكرية وتاريخية كبرى ، وانصرف الناس عن هذه الأفكار التقدمية الجديدة ، وعادوا ، نتيجة رد الفعل القوى والاحباط الذى أصيبوا به ، الى الماضى والى كل ماهو قديم عندهم • وظهرت فى ذلك الوقت ما عُرف " بالحركة الرومانتيكيه فى التفكير التاريخى " ، تلك الحركة التى كانت بمثابة انقلاب عنيف ضد ڤولتير وتلاميذه ، وعلى فلسفة روسو • وراحت هذه الحركة تعيد بناء المجتمع الانسانى على أساس جديد ، مخالف بالمرة للأساس الذى وضعته الثورة الفرنسية •

وكان أبرز سمات هذه الحركة الرجعية هو الاخلاص للمسيحية واعادة هيبتها وقدسيتها ، واحترام العرف والتقاليد القديمة ، لا لمالها من قيمة ولكن لما لها من قدم وعراقة • ومجّدت هذه الحركة العصور الوسطى وعدّتها المثل الأعلى بين العصور ، ورفعت مبدأ الحق الالهى المقدس فى الحكم واحلال مبدأ القومية والاعتراض على الديمقراطية •

وعاد التاريخ ، مرة أخرى ، على يد هؤلاء الرومانتيكيين الابتداعيين تاريخاً مدرسياً تعليمياً • فظهرت فى تلك الفترة مجموعة كتب تاريخية عكست هذا المفهوم ، ووضّحت كيف انصرف الناس فى أوربا آنذاك الى فضائل العالم القديم والى المثل العليا وعادوا الى أفكار الخرافة وأوهام الأساطير •

ويأتى فى قائمة هذه الكتب : " كتاب الفروسية وعصرها " للمؤرخ الألمانى " بوشينج " Busching (١٧٨٣—١٨٢٩) ، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٨٢٣ • وكتاب " تاريخ الفروسية " ، للمؤرخ الانجليزى " جيمس " A. James (١٧٩٩—١٨٦٠) ، الذى ظهر سنة ١٨٣٠ • وكتاب عبقرية المسيحية " للمؤرخ الكاتب الفرنسى الشهير " شاتوبريان Chateau Briand ، الذى ظهر سنة

١٨٢٠ • وكتاب " دوقات برجانديا " ، لمؤلفه المؤرخ الفرنسى " بارانت" Barante (١٧٨٢–١٨٥٦) والذى ظهر سنة ١٨٢٦ • وكتاب " تاريخ فرنسا " للمؤرخ الفرنسى الكبير " ميشيليه J. Michelet [1] ، والذى ظهر سنة ١٨٣٣ • وأخيراً نأتى الى كتاب " الماضى والحاضر " لمؤلفه المؤرخ الانجليزى الشهير " كارلييل " T. Carlyle الذى ظهر سنة ١٨٤٣ [٢] •

واذا كانت هنالك حسنة تذكر لهذه الحركة الرومانتيكية ، فهى أنها ردت على العصور الوسطى مقامها وبرأتها مما وصفها به رجال النهضة والاصلاح الدينى وثوار الثورة الفرنسية • وأنها دفعت المؤرخين والعلماء الى اعادة دراسة سجلات العصور الوسطى التى كانت كماً مهملا غير محتفل بــه •

كذلك كان من نتائج هذه الحركة ظهور فلسفة التاريخ مرة ثانية على يد الفلاسفة المشهورين : شليجل ، شلنج ، وهيجل •

---

(١) عاش فى الفترة ما بين ١٧٩٨–١٨٧٤ •

(٢) هو توماس كارلييل (١٧٩٥–١٨٨١) ، من أشهر مؤرخى القرن التاسع عشر ، كان يعالج التاريخ كتراجم لأشخاص • أحسن أعماله المعروفه هى ، اضافة الى كتاب الماضى والحاضر : كتاب " الثورة الفرنسية " الذى ظهر عام ١٩٣٧ ، وكتاب " خطابات اوليفر كرومويل وخطبه " ، الذى ظهر سنة ١٨٤٥ ، وكتاب " تاريخ فردريك الثانى البروسى " ، وهو ملك بروسيا الذى حكم مابين ١٨٥٨–١٨٦٥ • كذلك ألف وأخرج سنة ١٨٣٠ كتابا عن التاريخ اسماه " فى التاريخ " •

(Stern : The Varieties of History, U.S.A., 1961, p. 90.).

الدراسة العلمية للتاريخ فى القرن التاسع عشر :

نظرية هيجل فى التاريخ (التاريخ الفلسفى) :

ألف الفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠-١٨٣٠) ، كتابا عن التاريخ بعنوان "فلسفة التاريخ" ، ظهر سنة ١٨٢٣ ، وعرض فيه وجهة نظره فى التاريخ فى أنه ليس مجرد حقائق نتثبت منها ، بل هو نتائج لأحداث علينا أن نثبتها لنعرف سبب وقوع هذه الحقائق فى الصورة التى حدثت بها (١) . وبذلك يقول هيجل ، يكون السؤال الذى يتعين على التاريخ الفلسفى الاجابة عنه هو السؤال عن الكيفية التى أتت بها الدولة الى حيز الوجود . كذلك يرى هيجل أن التاريخ الفلسفى لا يعرض أمامنا مجرد عملية انسانية أو مجرد نشاط انسانى وانما هو يعرض أمامنا عملية كونية تتيح للكون تحقيق اسمى معانيه حين يصبح على بينة من حقيقة .

وتنحصر العناصر الرئيسية فى نظرة هيجل للتاريخ فى العناصر الأساسية التالية :

١- يعتبر هيجل أن عمليات الطبيعة ليست من قبل التاريخ ، وأن تكرار هذه العمليات لا دخل لها فى أعمال البناء التاريخى ، وأن الطبيعة والتاريخ أمران منفصلان لا تأثير لأحدهما على الآخر .

٢- يؤكد هيجل رأيه فى أن التاريخ لا يعيد نفسه ، وأن نشاط الأحداث التاريخية لا يتخذ شكلا دائريا وانما يتخذ طريقا تصاعديا . واذا بدى لنا نشاط متكرر فان هذا النشاط يختلف عن سالفه بما استحدث من جديد ، ولذلك تحدث الحروب بين آونة وأخرى فى التاريخ ، ولكن كل حرب جديدة تعتبر فى بعض نواحيها حربا من طراز جديد نتيجة للدرس الذى تعلمته البشرية من الحرب التى سبقتها .

٣- لا يوجد تاريخ الا تاريخ الحياة الانسانية ، ولن تكون هذه مجرد حياة ، ولكن حياة من النوع الذى يسوده العقل وتحياها بشرية مفكرة .

---

(١) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٢١١ .

٤- التاريخ فى اشكاله المختلفة تاريخ للفكر ، وان التعريف الدقيق لمهمة المؤرخ هى فهمه لتفكير الناس لا معرفة ما عمله الناس[1] .

٥- العقل هو القوة التى تنبثق منها العملية التاريخية ، وان كل ما يحدث فى التاريخ يصدر عن ارادة الانسان ، التى تخضع لما حصل عليه من علم وفكر .

٦- العملية التاريخية فى صميمها عملية منطقية ، والانتقال من مرحلة تاريخيه الى أخرى ماهو الا انتقال من مرحلة منطقية الى أخرى تطرد فى سياق الزمن . وما التاريخ الا نوع من المنطق لم تستبدل فيه العلاقة بين فكرة سابقة واخرى لاحقه بعلاقة أخرى بمقدار ما أضفى على هذه العلاقة نفسها من معانى القوة والمناعة مما جعلها تتسق مع السياق الزمنى من حيث ترتيب الاحداث ما سبق منها وما لحق . ومن ثم فان التطورات التى تحدث مع التاريخ لا يمكن أن تكون عرضية وانما هى تطورات حتمية .

المادية التاريخية :

ماركس وانجلز :

يعد كارل ماركس Karl Marx (١٨١٣-١٨٨٣) ، وزميله فردريك انجلز Friedrich Engels (١٨٢٠-١٨٩٥) ، الرعيل الأول من تلاميذ هيجل ، وقد تخصصا فى دراسة تاريخ النشاط الاقتصادى . وقد حذيا حذو هيجل فى الاصرار على أن تاريخ البشرية ليس مجرد حوادث مصفوف بعضها الى جوار بعض ، وهو وان كان تاريخا واحدا ، فهو يتقسم فيما بينه الى أقسام كالتاريخ السياسى والتاريخ الفنى ، والتاريخ الدينى ، والتاريخ الاقتصادى ، وهكذا واعتبرا أن هذه الوحدة التاريخية ترتكز على خيط واحد أساسى متماسك هو الخيط الاقتصادى . فى حين أنه لا توجد للخيوط الاخرى كيان مستمر يبقى على وحدتها لأنها ، كما يقولون ، فى مرحلة من مراحل تطورها لا تعدو أن تكون تعبيرا عن حقيقة جوهرية هى الحقيقة الاقتصادية ، وبذلك ، حسب رأيهما ، يكون العنصر الاقتصادى

(١) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٢١٣ .

هو العنصر الوحيد الذى يعين سير التاريخ (١) .

يقول ماركس : "ان البناء الاقتصادى للمجتمع هو الأساس الحقيقى الذى تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتى تطابقها أشكال محدودة من الشعور الاجتماعى" . ويضيف ماركس قائلا فى كتابه رأس المال : "ان التغيير فى المجتمع يقوم على أساس الصراع بين الطبقات وينتهى حتما الى المجتمع اللاطبقى الكامل وهو مجتمع الاشتراكية بانتصار دكتاتورية (البرولتياريا) الطبقة العاملة (٢).

ولقد عُرف مذهب ماركس بالمادية التاريخيه ، لقيامه على تفسير التاريخ تفسيرا اقتصاديا صرفا . وبعد أن قرر واضعو هذا المذهب أن الحوادث الاقتصادية تقيد الوقائع كثيرا ، قالوا مؤكدين أن جميع حوادث التاريخ المهمة تشتق من النظام الاقتصادى ، فالحياة الاقتصادية تفسر الحياة السياسية حتى الأفكار والمعتقدات. ومن الطبيعى أن تظهر الأحوال الاقتصادية ، التى يعلق مذهب المادية التاريخية اهمية عليها ، بين علل تطور الأمم ولكن من المستبعد أن تكون هذه الأحوال أهم هذه العلل .

المذهب الوضعـى :

لم يقدر للمادية التاريخيه التى بشر بها ماركس وزملاؤه أن تنال من دراسة التاريخ الا بقدر ضئيل سريع ، حتى اذا أتى القرن التاسع عشر ازداد شك هذه الدراسة فى قيمة كل فلسفات التاريخ بوصفها ألوانا من التفكير الأجوف ، وقد عرفت تلك النزعة الجديدة فى ذلك القرن بالمذهب الوضعى (٣) . وكان من نتيجة هذا الاتجاه أن جاءت كتابة التاريخ فى هذا القرن مستندة الى هذا المذهب الجديد .

---

(١) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) Rowse : The Use of History, London 1946, pp. 124, 125.

(٣) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٢٣٠ .

ولقد تضمن أصحاب هذا المذهب نهجين أساسيين : أولهما ، التثبت من الحقائق التاريخية ، وثانيهما : صياغة القوانين التاريخية •

وحشد المؤرخون فى ذلك القرن كل ما لديهم من جهد ، ابتغاء انجاز القسم الأول من هذا المنهج • فابتدأوا بالتثبت من كل الحقائق التى وصلت الى أيديهم ، فتوفرت لهم ، نتيجة لذلك ، مادة تاريخية ضخمة واسعة التفاصيل تستند الى فحص تحليلى دقيق لم يسبق له مثيل • ولقد أثرى التاريخ فى هذا العصر مادته التى نُقحت بعناية فائقة • ووُضعت سجلات كثيرة حوت على أخبار منقحة منقولة عن أصول صحيحة ، كذلك وُجدت طبعات جديدة من الوثائق التاريخيه فضلا عن توفر مصادر تاريخية من كل نوع •

ولقد استتبع عملية الجمع للمصادر ، عملية النشر لها ، ولقد تعثر أمر النشر ، فى أول الأمر ، لما اعترضه من صعوبات وبدائية ملكة النشر نفسها ، ولكن تقدمت عملية النشر ، مع الوقت ، بعد أن اكتسب الناشرون الخبرة الفنية اللازمة • وأمكن آخر الأمر ، ظهور مجاميع من المادة التاريخية الموثوق بصحتها تباعا •

ولقد كانت انجلترا أسبق الأمم فى مجال نشر المجموعات التاريخية ، فقد نشرت مجموعات من تاريخها منها : مجموعتى هول وهولينشد ، ثم جاء بعد انجلترا كل من أسبانيا ثم المانيا ثم فرنسا •

ويمكن القول ، على العموم ، أنه عندما افتتح القرن التاسع عشر ، كان الغرب قد تهيأ لقيام مدرسة علمية جديدة من المؤرخين ، وكان العالم قد عرف مجموعات تاريخية هامة منقحة تنقيحا دقيقا ، استنادا على المذهب الوضعى الجديد الذى ساد أوربا فى القرن التاسع عشر •

والعيوب التى تؤخذ على مسيرة التاريخ فى ذلك القرن تنحصر فى أمور ثلاث هى:

١ — كان التاريخ لا يدرس لذاته ، وابتغاءا للوصول الى الحقيقة من وراء البحث فى أحداث الماضى الخطيرة ومعرفة أسبابها ونتائجها ، بل دُرس التاريخ لخدمة السياسة •

٢ـ جاءت نظرة التاريخ ضيقة وانحصرت فى نزعة المؤرخين المحلية والطائفيـــــة، فجاءت دراساتهم دراسات قومية تعصبية محدودة وانصبت دراسة التاريخ آنـذاك على أوربا ، وفرغ كل مؤرخ نفسه لدراسة قطره أو دولته غير عابئ ببقية تاريـــخ الاقطار أو الشعوب .

٣ـ انحصر نشاط المؤرخين فى دائرة محدودة حدودها السياسة والدين ولـــم يتخطوها الى الميادين الأخرى ، مثل ميادين الاقتصاد والاجتماع والثقافـــة وهى مجالات كانت جديرة بالدراسة اكثر من مجال السياسة والدين .

٤ـ اسرف هؤلاء المؤرخون فى أخذ الناحية الفرديـــة من التاريخ فاعتنوا بالملــوك والامراء والقواد والوزراء وعظماء الرجال غاضين النظر عن أحوال الجماهـــير التى كانوا يحتقرون شأنها .

٥ـ سلم كثير من هؤلاء المؤرخين بما جاء فى المصادر والوثائق التى جمعوها ولـــم ينقدوها او يسبروا غـــورها لأن عنايتهم كانت منصبة على عملية جمع ما ترامى لهم أنه صحيح وموثوق به. وقد تسرب داخل هذه المصادر التى وثقوا فيها الكثـــير من الأخبار والحوادث المكذوبة والمدسوسة .

<u>قيام المذهب الحديث فى النقد التاريخـــى :</u>

ثبت لبعض مؤرخـــى القرن التاسع عشر أنه من الممكن أن نستنبط معلومــــات تاريخيه هامة وخطيرة من الوثائق القديمة اذا نحن أقبلنا على دراستها دراســـــة نقدية تحليلية سليمة . ومن هنا نشأت مدرسة المذهب الحديث فى النقد التاريخـــى الذى يعد المؤرخ " وولف " (١٧٥٩ــ١٨٢٤) رائدا لها . وكان وولف قـــد نشر فى سنة ١٧٩٥ كتابه :

" مقدمة هوميروس " ، وكان هذا الكتاب بحثا ادبيا لغويا اكثر منه بحثــــا تاريخيا . وقيمة هذه المقدمة أنها أثرت بما جاء فيها من أفكار على تلميذ وولف وهـــو

"أوجست بخ" (١٧٨٥-١٨٦٧) (١) الذى جرب طريقة استاذه ، التى جربها فى الأدب ، فى المواد التاريخية فوصل الى نتائج طيبة منها كتابه "الاقتصاد السياسى فى اثينا" الذى أخرجه سنة ١٨١٧.

ولقد دفعت حرارة النقد التاريخى الجديد المؤرخ الالمانى والعالم السياسى الشهير "بارثولد جورج نيبهور" (٢) B. G. Niebuhr. (١٧٧٦-١٨٣١) التى استخدم طريقة وولف فى دراسة التاريخ القديم، وطبق هذه الطريقة اول ما طبق منتقدا كتابات المؤرخ الرومانى القديم الشهير ليفى. وكان نيبهور عظيما فى شخصه ، عظيما فى علمه ، عظيما فى بحثه . ولقد قال عنه دلتى Dilthey : "ليس هنالك شاب يدخل الجامعة لا يمنى نفسه بأن يصبح مثل هذا العالم العظيم" . كتب نيبهور كتابه "تاريخ روما" فى مجلدين وأخرجه سنة ١٨١٢ فى ثلاث مجلدات . وكان كتابه هذا اول محاولة فى اعادة بناء الأصول التاريخية للدولة الرومانية ، وأصول ما أورده المؤرخون الأول عن انتصارات روما فى العهد الامبراطورى (٣) . ولقد أحيا نيبهور ، بدراسته الجديدة هذه واستخدامه المذهب الحديث فى النقد التاريخى .

---

(١) وهو عالم ألمانى متخصص فى اللغتين اليونانية واللاتينية .

(٢) كان أبوه رحالة ، واتجه نيبهور للدراسات القديمة واتقن عشرين لغة قبل أن يصل الى سن الثلاثين . وبدأ الخدمة المدنية فى وطنه الدانمرك والتحق سنة ١٨٠٦ بالخدمة البروسية ، وصار عضوا هاما فى حركة الاصلاح البروسية . واختير سنة ١٨١٠ محاضرا فى جامعة برلين وقت افتتاحها، وصار سفيرا حتى سنة ١٨٢٣ ثم قضى ايامه الأخيرة استاذا فى جامعة بون .

(٣) Stern : The Varieties of History, p. 46.

أحيا التاريخ الرومانى ، وبوأ التاريخ نفسه مكانة العلم المستقل المتقدم على باقى العلوم .

ولقد اعتنق مذهب وولف ونيبهور فى النقد التاريخى عديد من علماء القرن التاسع عشر فى شتى الأقطار ، وكان من أشهرهم : فى المانيا : "ليوبولد فون رانكى" Leopold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) الذى يعد أبو وسيد مدرسة التاريخ الحديث ، ولذلك أطلق عليه لقب "نسطور المؤرخين"(١) . ولا تأتى شهرة رانكى من انتاجه التاريخى الضخم ، الذى يزيد عن الستين كتابا ، ولكن من حسن صياغته للطريقة التاريخية واستخدامه أسلوب النقد التاريخى ، الأمر الذى أعطاه الزعامة على جميع مؤرخى أوربا المحدثين(٢) .

ولقد علم رانكى تلاميذه أن يكتبوا التاريخ من مصادره الصحيحة ومن روايات شهود العيان . وقد نشر رانكى ، أثناء تدريسه لجيلين من المؤرخين فى برلين ، عمله الشهير المحبب اليه بين كل أعماله وهو كتاب : "تاريخ البابوات" الذى اصدره ما بين سنوات ١٨٣٤-١٨٣٦ وكتاب: "تاريخ ألمانيا فى عهد الاصلاح" الذى اخرجه ما بين سنوات ١٨٣٩-١٨٤٣ . ولقد دعا رانكى المؤرخين أن يكتبوا عن حقب معينة من التاريخ ، على أن تكتب هذه الحقب على أنها جزء من التاريخ العالمى . وفى خلال السنوات الست والثمانين التى عاشها رانكى من عمره حاول أن يكتب تاريخا كاملا للعالم(٣) .

---

(١) Stern : Op. cit., p. 54.

(٢) كان رانكى قد تخصص فى الأصل فى اللغات وقام بتدريسها عدة سنوات ، ولكنه فى سنة ١٨٢٠ اتجه للتاريخ ودعى لتدريسه بجامعة برلين سنة ١٨٢٤ ، فأخذ ينظم هنالك سيمنارا للتاريخ . وسفره الواسع عبر أوربا لكتشف مصادر تاريخيه كثيرة للدول الحديثة (Stern : Op. Cit., p. 54)

(٣) Stern : Op. cit., p. 55.

وتسلم شعلة نيبهور من بعده مؤرخ ألمانى آخر هو " تيود ور مومسن Theodor Mommsen" (١٨١٧-١٩٠٣) فوضع تاريخا عاما لألمانيا . أما فرنسا فقد افتتح مذهب النقد التاريخى الحديث فيها بتأسيس " مدرسة الوثائق École des Chartes فى سنة ١٨٢١ . وقد أصبحت هذه المدرسة ، قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر ، المركز الرئيسى للدراسات الببلوجرافية والدبلوماسية فى كل أوربا . وقد خرّجت هذه المدرسة العديد من التلاميذ الذين دفعوا ، بما كتبوا فى نواحى التاريخ الفرنسى مستوى البحث العلمى التاريخى الى المستوى الرفيع . وكان من أشهر تلاميذ هذه المدرسة المؤرخون : بنيامين جيرار ، غبريال مونو ، وفوستيل دى كولانج.

وجاءت انجلترا بعد فرنسا فى هذا المجال ، وظهر فيها عدد من المؤرخين الانجليز الذين اتبعوا نهج مدرسة النقد التاريخى الحديث ، كان من أبرزهم : فرنسيس بالجرايف (١٧٨٨-١٨٦١) و " جون ميشيل كامبل" (١٨٠٧-١٨٥٧) .

أما الولايات المتحدة الأمريكية ، التى ظهرت كقوة عالمية كبيرة على مسرح سياسة العالم آنذاك ، فسرعان ما أخذ الباحثون المؤرخون فيها الدراسة العلمية الحديثة للتاريخ بتأثير من النفوذ الألمانى . وظهر على أثر ذلك ، فى منتصف القرن التاسع عشر الثانى ، عدد من الطلاب المؤرخين الامريكيين الذين درسوا التاريخ على النهج الجديد فى جامعات ألمانيا ، وكان من أشهر هؤلاء : " هنرى آدمز " و " جون برجس " .

هذا وقد سرى تيار منهج النقد التاريخى الحديث فى كل بلاد أوربا وأمريكا . ونشط المؤرخون فى هذه البلاد فى جمع المعلومات التاريخيه من ركام مكتبات أوربا ودور محفوظاتها ، فقاموا بتقسيمها وتبويبها ، ثم قاموا بنقدها وتحليلها ، وتولوا نشرها . ولقد ساهمت الحكومات فى العمل على تنشيط هذا العمل الرائع بتقديم الدعم المادى والمالى اللازم لذلك العمل العظيم.

رواد التاريخ الحديث :

صحب تقدم الطريقة العلمية فى التاريخ تغير هام طرأ على تصور المؤرخين للتاريخ ووظيفته . فبدلا من اعتناء المؤرخين بآمال وآلام الملوك والأمراء وأفعال القواد والوزراء ، أخذوا فى الاهتمام بتاريخ حياة الشعوب بمناحيها المتعددة . ولقد ساعد فى تنبيههم هذا الأمر تقدم الديمقراطية وذيوع الآراء الاشتراكية وظهور الحركات الشعبية وبداية الأزمات الاقتصادية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبذلك مد المؤرخون نطاق بحثهم وطرقوا ميدانا جديدا لم يكن يحظ من قبل بعناية المؤرخين على مر العصور .

ولقد ظهر هذا الاتجاه الجديد فى مؤرخى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بين أمثال كل من : "روشر" الألمانى Roscher ، و "أفنل" الفرنسى Avenel ، و "ماكيلى" الانجليزى Mackelly . فلقد مد هؤلاء الثلاثة نطاق بحثهم فى التاريخ وضمنوا تواريخهم العامة حياة الشعب بمناحيها المتعددة (١) .

كذلك ظهر اتجاه جديد لمؤرخى هذه الفترة وهو ضرورة التخصص والتركيز فى تاريخ معين . وظهر هذا الاتجاه وبدأ وجوب التخصص فى تاريخ انجلترا عند المؤرخين اللذين تزعما حركة التاريخ فى أواسط العهد الفيكتورى وهما : "فريمان" Freeman (١٨٢٢-١٨٩٢) ، و "جون سيلى" John Seeley (١٨٣٤-١٨٩٥) . ولقد أخرج هذان المؤرخان من دائرة بحثهما فى السياسة كل مالا يمت الى السياسة بصلة ، وكان شعارهم فى ذلك قولهم "ان التاريخ سياسة الماضى ، والسياسة تاريخ الحاضر" ، ولذلك لم يهتموا بالمصادر الا بما فيه من أوراق رسمية تخدم السياسة .

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

والى جانب هذا الاتجاه وهذه النزعة شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر نزعات أخرى تتصل بعلاج التاريخ ، ومن هذه النزعات تلك النزعة التى نادى بها لورد "آكتين" Akten (٢) ، ودعى المؤرخين الى ضرورة الاحاطة بحركات الأفكار التى هى الملهمة للأحداث والمسببة لهما وجعلها دائما نصب أعينهم .

كذلك منها تلك النزعة الدينية التى روج لها المؤرخ الألمانى "دولينجر" Dollinger (١٧٩٩-١٨٩٠) ، وهى نزعة أكد فيها ما للدين من قوة مؤثرة فى التاريخ .

كذلك استمرار وجود النزعة المادية للتاريخ التى نادى بها أتباع كارل ماركس وتلاميذه وفسرت حوادث التاريخ على أنها نتائج اقتصادية مادية بحتة .

وأيضا ظهرت النزعة الفريزية فى التاريخ ، التى أعلنتها مدرسة قوية كان أعضاؤها من علماء النفس الاجتماعيين بزعامة الألمانى "كارل لمبرخت" Karl Lamprach (١٨٥٦-١٩١٥) أستاذ التاريخ بجامعة ليبزج .

ولقد اعترف فلاسفة المؤرخين ومفكروهم بأن لكل هذه العوامل والنزعات مجتمعة تأثيرها على المجتمع الانسانى وعلى الأحداث التاريخية . على أنه برغم ماكان بين مؤرخى القرن التاسع عشر من خلاف فى تصور التاريخ فانهم جميعهم وجدوا فى مبدأ النشوء والارتقاء الذى جاءهم من عالم الاجتماع والفلسفة ما وحد أعمالهم وبث فيها الحياة . ولقد أضحت فكرة النشوء والارتقاء هى

---

(١) أعلن لورد أكتن دعوته هذه فى محاضرته الافتتاحية المشهورة التى ألقاها فى يونيو ١٨٩٥ وهاجم فيها النظرة الاقليمية الضيقة للمؤرخين .

أساس تفكير القرن التاسع عشر (١) . وتبوأت هذه الفكرة مكانتها في هذا القرن عندما آلت زعامة الفلسفة الى الفيلسوف الألماني الكبير "كانت" Kant ، والفلاسفة الألمان التابعين : شليجل وهيجل على التوالي .

ولقد اتخذ المؤرخ والفيلسوف الانجليزي العظيم "هربرت سبنسر" H. Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) من مبدأ النشوء والارتقاء أساسا لنظام تفكير شامل يقوم عليه البحث في تفسير الأحداث التي وقعت في التاريخ منذ القدم حتى الآن .

ولقد استخدم هذا المبدأ أيضا في دراسة كل من الجيولوجي الانجليزي "ليبل" Leyell (١٧٩٧-١٨٧٥) ، والعالم الطبيعي الانجليزي الكبير "داروين" Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) ، صاحب كتاب "أصول الأنواع" . كذلك استخدمه الفيلسوف الانجليزي المشهور "جون ستيوارت ميل" J.S. Mill (١٨٠٦-١٨٧٣) .

---

(١) لم تكن هذه الفكرة فكرة جديدة بأي حال من الأحوال . فلقد كان تصور العلماء على أن شئون هذا العالم على أنها عملية نمو وتكشف تدريجي قديم قدم أرسطو نفسه . غير أن الفكرة كان ينقصها أن تتحرر وتتحقق في ميدان العلم الطبيعي على نحو ما كان يعرفه القدماء ، ولذلك كانت قديما مجرد افتراض محض . وظلت هذه الفكرة كامنة في مذهب وحدة الوجود الرواقي حتى انبثاق فجر العصور الوسطى . وظلت هذه الفكرة مغمورة مدة ألف سنة الى أن ناط عنها اللثام القديس اوغسطين وتلاميذه . ثم انبعثت مرة أخرى في عصر النهضة ، وظلت عالقة بصفة مطلقة في التفكير الاوربي . ونلحظ وجودها ونفوذها في افكار فلاسفة القرن ١٧ ، ١٨ أمثال : الفيلسوف اسبينوزا ، والفيلسوف الانجليزي لوك والفيلسوف الألماني ليبنز ، والكاتب الألماني ليسينج .

ولقد دخلت عقيدة النشوء والارتقاء كل فروع المعرفة اليقينية في القرن التاسع عشر ، وأصبح من المتعين أن تبحث من جديد ظواهر الطبيعة وطبيعة الانسان والاجتماع والدين ، حتى نتعرف على الكيفية التي اكتسبت بها هذه الظواهر خصائصها الحاضرة .

ولقد حاول الفيلسوف الفرنسي العظيم "أوجست كمت" Auguste Comte (١٧٩٨-١٨٥٧) ، أن يفسر غرابة أطوار الانسان في حالة التفرد والاجتماع. لكن كمت لكونه فيلسوفا ، وليس مؤرخا يستطيع أن يستنطق الأحداث ، لم يحاول أن يتصدى للتاريخ. الا أن مالم يُقدم هو عليه أقدم عليه تلميذه المؤرخ الفيلسوف "توماس هنرى بكل" T.H. Buckle (١٨٢١ - ١٨٦١) ، حين وضع كتاب "تاريخ الحضارة في انجلترا" في غضون سنتي ١٨٥٧-١٨٦١ .(١)

ولقد أحدث كتاب "بكل" ضجة قوية وجدلا طويلا . وتكشف هذا الجدل في النهاية عن حقيقتين هامتين تؤكدان أن التاريخ من حيث موقعه بين العلوم فهو علم يختلف عن العلوم الطبيعية من حيث طرائقه وتعميماته ، وأن هذا العلم من حيث طرائقه علم نقد لا علم تجربة ومشاهدة ، أما من حيث تعميماته فان هذه التعميمات لا يمكن أن يحكمها قانون معين .

توينبي والتاريخ :

يعد المؤرخ الانجليزى المعاصر "أرنولد توينبي" (٢) Arnold Toynbee

---

(١) هرنشو : علم التاريخ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) ولد المؤرخ المعاصر توينبي في لندن يوم ١٤ ابريل ١٨٨٩ ، ودرس الأدبين اليوناني واللاتيني في جامعة اكسفورد وعين سنة ١٩١٩ استاذا للأدب اللاتيني بجامعة لندن ، وبدأ يشرف على المعهد الملكي للشئون الدولية منذ عام ١٩٢٥ ، كما عين استاذا للتاريخ العام في جامعة لندن - توفي يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شهر اكتوبر ١٩٧٥ ، عن ٨٦ عاما .

(١٨٨٩-١٩٧٥) ، أشهر مؤرخي العالم المعاصرين وصاحب مدرسة وفلسفة خاصة في التاريخ . ولقد ألّف توينبي مؤلفات عديدة في التاريخ وفي فلسفة التاريخ ، جاء أهمها كتابه المؤلف من عشرة أجزاء والمعروف باسم "دراسة التاريخ "(١) A Study of History الذى يتميز بعرض جديد لكتابة التاريخ ، ويحمل كتاب توينبي الاشارة الكافية الى أسلوب بحثه وهدف هذا البحث . ويبدو المبدأ الرئيسي في رأى توينبي هو أن موضوع التاريخ ينحصر في الحياة التي يحياها بعض الأقسام "الموحدة " من أنواع الانسان ، وهي التي يسميها توينبي بالمجتمعات (٢). وهو يرى "أن المجتمعات الأعظم اتساعا في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة أو أية جماعات سياسية أخرى هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية ".

ولقد قسّم توينبي هذه المجتمعات الى خمسة مجتمعات هي :
المجتمع المسيحي الغربي ، والكتلة المسيحية الشرقية (أو البيزنطية) ، والمجتمع الاسلامي ، والمجتمع الهندى ، ومجتمع الشرق الأقصى . ويقول توينبي بأن هنالك مجتمعات أخرى مماثلة كانت قائمة في التاريخ القديم ثم بادت واندثرت .

ويصف توينبي العلاقات القائمة والخلاف الناشب بين أفراد المجتمع الواحد بأنها علاقات وخلافات ضيقة محدودة ، وأما الدائرة التي يدرس فيها المؤرخ فتلك دائرة واسعة ، رحبة مليئة بألوان لا حصر لها من الموضوعات. وان أهم هذه الموضوعات كلها هي تلك التي تختص بالفوارق والمميزات بين هذه المجتمعات كذلك بالعلاقات القائمة بينها .

---

(١) بدأ في كتابة هذا الكتاب منذ سنة ١٩٢٢، وصدرت المجلدات الثلاث الأولى منه سنة ١٩٣٤. واختصرت الستة أجزاء الأولى من الكتاب في مجلد واحد اختصره سوميرفيل "D. C. Somervell" بموافقة من توينبي بعنوانه الاصلي : "A Study of History" وأصدرته جامعة اكسفورد عام ١٩٤٦.

(٢) منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبي ، بيروت ١٩٦٠ ، ص١١.

ويستند منهج البحث التاريخى عند توينبى على بعض المدلولات الفكرية العامة أو الأقسام الرئيسية التى تندرج تحتها ألوان المعرفة ، والتبعية هى أحد هذه المدلولات العامة ، والظاهرة الأخرى التى تتصل بالتبعية هى ظاهرة الوراثة المستمدة من هذه التبعية على النحو الذى نراه مثلا فى العلاقة القائمة بين المجتمع المسيحى الغربى والمجتمع الهيلينى الذى يعتبر هو الأصل الذى انحدر منه المجتمع الغربى (١) .

وينصرف توينبى فى كتابه الى مهمته الرئيسية وهى دراسة مقارنة للمدنيات (الحضارات) ، واعتباره الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية (٢). والسؤال الأول والجوهرى فى نظر توينبى : هو كيف ولماذا تنشأ المدنيات (الحضارات) ؟ والسؤال الثانى هو كيف ولماذا تتقدم هذه الحضارات ؟ والثالث : كيف ولماذا تنهار ؟ ثم هو ينتقل من هذا ، تبعا للخطة العامة التى رسمها فى مقدمة مجلده الأول ، الى دراسة طبيعة الدول العالمية والكنائس العالمية وعصور البطولة ، والاتصال بين الحضارات فى حدود المكان والزمان ، على أن يختتم البحوث كلها بأقسام يتحدث فيها عن مستقبل الحضارة الغربية وبما أسماه "ألوان من الايحاء عند المؤرخين" .

ويمثل انتاج توينبى صورة جديدة للكيفية التى يعالج بها التاريخ استنادا الى أسس المذهب الوضعى ، وهى الأسس التى تخلق من التاريخ دراسة لها كيانها الخاصة ، مشتقة من منهاج البحث فى العلوم الطبيعية . وتقوم هذه الأسس ، بدورها ، على فكرة وجود علاقات خارجية بين الظواهر بعضها وبعض ، وقد استند توينبى على هذه الأسس فى علاجه للتاريخ . لذلك نجد أن أول شىء يفعله هو القيام بتقسيم موضوع الدراسة التاريخية الى عدد يمكن تحديده من الأقسام المنفصلة بعضها عن الآخر ، يسمى كل قسم منها مجتمعا من هذه المجتمعات وحدة كاملة متماسكة . لذلك ، يقول توينبى ، أنه يجب

---

(١) كولنجود : فكرة التاريخ ، ص ٢٨٧.

(٢) مفرح خورى: التاريخ الحضارى عند توينبى ، ص ١٠٧.

على المؤرخ أن يحدد بالضبط النقطة التي تنتهي عندها مجتمع ، ويبتدىء مجتمع آخر ولا يجوز عليه القول أن واحدا منهما يضفي على الآخر ألوانه ومعالمه .

والنقد الذى يوجه الى نظرة توينبي للتاريخ هو اعتقاده الخاطىء بأن التاريخ نفسه ، أو أن العملية التاريخيه نفسها ، تقسم بخطوط حادة الى أقسام لا رابط بينها ، وبذلك ينكر على هذه العملية صفة الاستمرار التي تكفل التفاعل والتشابك بين كل جزء من أجزاء هذه العملية وبقية الأجزاء (١).

ولقد أخطأ توينبي فزعم أن التفرقة بين المجتمعات أو المدنيات أو الحضارات من أنها تفرقة بين كتل أو تجمعات وهى فى الحقيقة التفرقة بين مراكز الاشعاع القوية فى هذه العملية وهى فى الحقيقة الاقسام الحقيقية للعملية التاريخية .

وثانى الانتقادات التى وجهت لفكرة توينبى عن التاريخ هو خطأه فى تكييف العلاقة بين العمليات التاريخية والمؤرخ الذى يدير هذه العمليات. ونظر توينبي الى المؤرخ على أنه الرجل الذكى الذى يشهد أحداث التاريخ كما يشهد رجل العلم الذكى أحداث الكون المادى ، ولم يدر بخلده أن المؤرخ هو عنصر لا يتجزأ من العمليات التاريخية نفسها ، وأن عليه أن يتمثل فى نفسه ألوان التجارب التى يدرسها من الوجهة التاريخية .

وهذان النقدان اللذان وجها لنظرة توينبى للتاريخ وللمؤرخ ينتهيان بنا الى شىء واحد فى نهاية الأمر ، هو أن التاريخ قد تحول ، فى نظر توينبى ، الى دراسة من دراسات الكون المادى ، وأن الماضى بدلا من أن يعيش فى الحاضر ، كما هو الحال فى التاريخ ، صُوِر على أنه ماضٍ فى حيز العدم ، شأنه فى ذلك شأن أى من ظواهر الكون المادى . ولكن تصحيحا لفكر توينبى ، نقول لمن يريد تعمقا فى معرفة التاريخ ، عليك ألا تفصل الانسان عن بيئته ، وعليك أيضا أن تربطه بسلسلة الموجودات الطويلة ، التى يُعد الانسان جزءا منها ، كذلك تربطه بالكون الذى لا يمثل الانسان فيه الا أحد مظاهره .

---

(١) كولنجـــود : فكرة التاريخ ، ص ٢٩٣.

وخلاصة القول فان التاريخ لم يعد يعنى بفروض سابقة تتعلق بالحكمة من خلق الانسان وخلق الدنيا ، ولا بأفكار فلسفة كامنه يظهرها مرور الزمن ، وانما هو علم اهتم بالانسان كيف كان وكيف هو الآن . ووضع التاريخ نفسه على قدم المساواة مع بقية العلوم التى تحاول أن تجلو لعقل الانسان معانى الأشياء كما هى . كذلك لم يعد المؤرخ فنانا يقوم برسم لوحة جذابة لماضى الانسان، بل هو عامل مقيد بعمل اكثر شرفا وأسمى طموحا ، ان عليه واجب تجهيز معاصريه ومدهم بسلاح العمل لبناء المستقبل ، انه فى توغلـه ، كما يقول هورس ، الى قلب أبعد العصور وأظلمها انما يبحث عن قبس يضىء به سبل المستقبل[1]، وهذا هو سر عظمة المؤرخ .

( )　　( )　　( )

---

(١) هورس : قيمة التاريخ ، ص ١١١ .

الفصل الخامس

العلوم المساعدة للباحث فى التاريخ

يحتاج الباحث فى التاريخ الى التعرف على مصادر مادته التاريخية والى كيفية التعامل مع هذه المصادر. فليست كتب التاريخ ، المخطوط منها والمطبوع ، هى المصدر الوحيد لباحث التاريخ ، فالكتب ماهى الا أحد هذه المصادر ، فهناك مصادر أخرى يجب أن يتعرف عليها وأن يعرف كيف يستخرج منها مادته التاريخيه. وتختلف مصادر المادة التاريخية من تخصص تاريخى الى آخر ، ذلك لان التخصص الدقيق قد أصبح هو رائد الدراسة فى العصر الحديث ولم يعد يوجد هناك المؤرخ العام الشامل الذى يؤرخ لكل التاريخ كما كان فى القديم .

فالدارس للتاريخ القديم يحتاج ، الى جانب كتب التاريخ المتخصصة فى هذا التاريخ ، الى دراسة الآثار والمخلفات الانسانية المتصلة بالعصر الذى يدرسه ، سواء أكانت هذه المخلفات وثائق بردية أو نقوش محفورة على الحجر أو مخلفات تتصل بحاجيات استعمالاته . والدارس للتاريخ الوسيط ، الغربى منه والاسلامى ، محتاج الى جانب درس المخطوطات وفك طلاسمها ، الى دراسة المخلفات الأثرية والشارات الملوكية والمبانى المعمارية والحاجيات المعيشية التى خلفتها هذه العصور . أما الدارس للتاريخ الحديث فهو يعتمد على دراسة الوثائق الحديثة المحفوظة فى دور الأرشيف والمذكرات الخاصة والصحف والنشرات والمقابلات الشخصية . على أن هنالك قاسما مشتركا بين جميع هذه التخصصات وهى الأدوات الضرورية التى يجب أن يتسلح بها كل من تصدى للبحث التاريخى ، مهما كان نوع التخصص الذى سوف يكتب فيه .

وتأتى معرفة اللغات فى أول قائمة هذه الأدوات التى يجب أن يتسلح بها

باحث التاريخ ، وبخاصة اللغات الأوروبية الحديثة الواسعة الاستعمال والانتشار في عالم هذا اليوم ، وأعني بها اللغتين الرئيسيتين الانجليزية والفرنسية. ويجب أن نؤمن بأنه ليس لأي باحث في التاريخ طريق يسلكه في بحثه دون أن يكون مسلحا ومجهزا باللغات ، فهي معوله وعدته وسلاحه والمفتاح الأساسي الذي يتحصل به على مادته . ولا نبالغ اذ قلنا أنه أهم مفاتيحه في جمع مادته العلمية . وكما أن الجندي لا يستطيع أن يخوض غمرات الحروب دون سلاح ، والصانع لا يستطيع أن يقدم على صنعته دون أدوات وآلات ، كذلك المؤرخ لن يجرؤ على اقتحام مجال البحث التاريخي دون اللغات .

وليس المقصود باللغة ، في هذا المقام ، اللغة القومية للباحث ، وان كانت اللغة القومية ضرورية اثناء جمع المادة التاريخيه وأثناء العملية الأخيرة من البحث وهي عملية كتابته اذ أراد ان يخرج الباحث بحثه بلغته القومية ، لكن القصد من اللغة هنا اللغات العالمية الحديثة : الانجليزية والفرنسية ، ثم بقية اللغات الاوربية الحديثة الأخرى مثل الالمانية والايطالية والاسبانية ، وهي لغات البحث والنشر الحديثة التي يعم استخدامها العالم كله . والعلم ، في وقتنا الحاضر لم يعد قصرا على أمة دون أخرى او شعب دون الآخر ، بل هو عمل مشترك بين جميع أمم الأرض . وليس معنى ذلك أن يعرف الباحث التاريخي كل اللغات الأوربية ، فهذا امر لا يقدر عليه الا القلة المتميزة ، بل يكفيه معرفة لغتين أو ثلاثة منها على أن تكون الانجليزية والفرنسية من بينهم .

وحتى يكون الباحث في التاريخ على علم مستمر بالأبحاث العالمية المتجددة التي تخرج على التوالي في مجال بحثه لابد أن يطلع على الدوريات والنشرات ودوائر المعارف والكتب المتخصصة والابحاث التي تصدر تباعا في بلاد العالم الغربي وبذلك يمكنه الاستفادة من كل ماهو جديد . وتصبح تبع ذلك معلوماته متجددة ويصبح على بينة مستمرة بما جد واستحدث في مجال بحثه . ولن يتسنى للباحث التاريخي أداء ذلك الا بمعرفته لغات هذه الدول التي تتسابق فيما بينها في

الكم الهائل الذى تنتجه فى جميع نواحى العلم والمعرفة .

ويظن البعض أن الترجمات تكفى فى هذا المقام ، ويدعون أنه ليست هنالك حاجة لمعرفة لغة النص مادام هنالك يتواجد المترجمون . وهذا هو الخطأ بعينه ، فاذا وجدت الترجمة فى مجال أو ميدان أو لبحث معين فهى لا توجد فى الآخر ، فامكانية الترجمة غير متوفرة ، وليست كل المواضيع يعنى المترجمون بترجمتها . وهنالك تخصصات معينة قد تستهوى اولئك النقلة ، أما غالبية التخصصات فلا تجد من يقبل على ترجمتها اما لصعوبتها أو لعدم حاجتهم الى ذلك . ولا يصح للباحث أن يضع نفسه تحت رحمة غيره وأن يسمح لنفسه أن يستجدى عطف واحسان الآخرين . وحتى لو وجدت الترجمة فكثيرا ما يوجد الخطأ فيها خاصة اذا كان المترجم محترفا للترجمة وغير متخصص . ولقد اثبتت التجارب أن الباحث التاريخى الذى يجيد بعض اللغات الاوربية يكون ، فى الغالب ، اكثر ثقافة وأشمل اطلاعا فى مجال تخصصه . فضلا على أنه يستطيع أن يشارك فى المجامع والمؤتمرات العلمية العالمية ، ويخرج عن نطاق المحلية ، وتكون له آراؤه بين آراء غيره من المتخصصين على مستوى العالم فى مجال تخصصه ، فيكون معروفا يقبل العالم على أبحاثه فى شغف ، خلافا فى ذلك لذلك الأسى فى اللغة المتقوقع على نفسه ، الخائف من رهبة اللغات والحبيس وراء موانعها .

وفى مجال ذكر اللغات يأتى الاهتمام بلغة التخصص فى البحث ، فالدارس للتاريخ المصرى القديم محتاج لدراسة اللغات القديمة : الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية القديمة . كذلك الدارس لتاريخ اوربا العصور الوسطى لابد له من دراسة اللغة اللاتينية التى هى لغة ذلك العصر ، حتى يستطع أن يطلع على وثائق هذا العصر التى كتبت بهذه اللغة . ومعرفة اللغة اللاتينيه تسهل على الباحث معرفة بقية اللغات الاوربية ، لأن هذه اللغة أصل كثير من اللغات التى يتكلم بها الاوربيون الآن . والدارس للتاريخ الاسلامى والتاريخ الحديث محتاج الى دراسة اللغات الشرقية وبخاصة الفارسية والتركية والعبرية الى جانب العربية ،

اضافة الى اللغات الاوربية الحديثة . . . وهكذا .

ويقول فى ذلك المؤرخ "سينوبوس"(١) Seignobos :

"ان من يقوم بدراسة الوثائق لهو أشد ما يكون حاجة الى معرفة لغاتها فكيف يتصرف الباحث اذا وقف حائرا عاجزا أمام احدى الوثائق التى يجهل لغتها ويعجز عن حل رموزها ؟ وكيف لمثل هذا الباحث أن يصدر حكما على ما فيها اذا كان هو لا يستطيع البت فى صحتها أو فسادها ؟ "

٢- ويتصل بدراسة اللغات ، معرفة فن "الباليوجرافيا" Paleography أى الفن الذى يستخدم فى قراءة خطوط اللغات القديمة كالهيروغليفية أو البابلية أو اليونانية القديمة . ولقد تجلت قيمة هذا الأمر بعد أن توصل الباحث الفرنسى "شمبليون" Champellion الى حل أصول اللغة الهيروغليفية . وثبت للعالم أن ما سجله قدماء المصريين على آثارهم لم يكن نقوشا للزينة ، كما كان يُظن ، بل هى كتابة للغتهم تضمنت أحداث تاريخهم وأهم أعمال ملوكهم (٢)

كذلك فان من يريد أن يدرس تاريخ أو أدب أو فلسفة اليونان فعليه أن يعرف كيف يقرأ اللغة اليونانية وكيف يتعامل مع نصوصها ، حتى يستطيع أن يقرأ كنوز ما خلّفه فلاسفة ومؤرخى الاغريق القدامى على لسانهم وبلغتهم التى كانوا يتحدثون بها . ومن الخطأ الاعتماد على التراجم فى دراسة نصوص وثائق اليونان القديمة ، لأن هذه النصوص قد حُرفت بعض التحريف عند نقلها الى السريانية والى العربية . ولقد أخذ كل من السريان والعرب ما يناسبهم من هذه النصوص وتركوا مالا يناسبهم . وبالطبع فان أخطاء دارس الوثائق

---

(١) Seignobos, Ch and Langlois: "Introduction to the Study of History, London 1932, pp. 42-43.

(٢) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص٢٣٩ .

تقل كلما ازداد الدارس الماما بهذا الفـن .

٣- ومن الأسلحة التى يجب أن يتزود بها باحث التاريخ ، الالمـام بفقه اللغات ، وهو ما عرف بعلم " الفيلولوجيا " Philologie وهو علم له قوانينه الخاصة التى تفسر لنا تطور الفاظ اللغة وتطور قواعدهـا (١) ومعرفة هذا العلم ضرورية لأقصى حد للباحث فى التاريخ ، لأنه لا يستطيع أن يتفهم لغة الوثائق القديمة دونها . ذلك لأن لغة الوثائق تفسر على أسـاس معانى الألفاظ واختلاف هذه المعانى من عصر لعصر . كذلك على تطور الأصـول النحوية للغة عن العصر الذى كتبت فيه . ولا نستطيع ، بالطبع ، التوصـل الى المعنى الحقيقى للكلمات القديمة لو نحن قابلناها بمضمون اللغات الحديثـة ، ولذلك تنشأ الأخطاء التاريخية لمادة بسبب عدم فهم المؤرخ للدلالة الحقيقيـة للكلمات أو بسبب جهله المطابق لقوانين اللغة وأصول قواعدها .

٤- ويتصل بأمر اللغات أيضا ، ضرورة تفهم علم أو فن قراءة الكتابـات الرسمية (الدبلومات) Diplomatique ، ويستخدم هذا الفن لفهـم الوثائق السياسية والكتابات التاريخية الرسمية ، ذلك لأن لهذه الوثائـق مصطلحاتها الخاصة وأصولها المرسومة (٢) .

---

(١) هورس : قيمة التاريخ ، ص ٧٧.

(٢) Seignobos: Op. cit., p. 51.

كانت الوثائق تحفظ فى الزمن القديم لدى كهنة المعابد وفى قصـور الملوك والامراء ، أما فى العصر الحديث فهى تحفظ ، منذ قيام الثورة الغرنسـية ، بدور الوثائق والمحفوظات أو بأرشيفات وزارة الخارجية ، وهنالك خزائـن خاصة لأفراد عاديين حفظوا فيها وثائقهم .

والوثيقة ، سواء أكانت رسمية أو غير رسمية ، هى المصدر الرئيسى الذى يعتمد عليه الباحث التاريخى فى بحثه ، وهى الجدول الذى ينهل منه معلوماته التاريخيه . وفهم مصطلحات الوثيقة ومعرفة كيفية التعامل معها وسبر أغوارها هو الباب الذى يوصل الباحث الى داخلها ويطلعه على أسرارها . ويُطلب من الباحث معرفة اللغة ودراسة الخط الذى كتب به الوثيقة ، ومعرفة أسلوب الانشاء الذى كان متبعا فى عصر تدوينها وأهم المصطلحات الرسمية ، والافتتاحيات التى كانت تفتح بها والخواتم التى كانت تُنهى بها ، ومراسم الكتابة التى كانت سائدة وقت كتابتها . هذا مع ضرورة التأكد من أصالة الوثيقة وصحتها وعدم زيفها ، وذلك بدراسة نوع الورق المستخدم وحجمه ولونه والمادة المصنع منه ، فضلا عن دراسة الأحبار المكتوبة بها وأصناف الأقلام المستخدمة فى الكتابة وظروف استعمالها فى مختلف الدوائر والدواوين . كذلك ضرورة معرفة الأختام التى كانت تختم بها أو العلامات التى كانت توضع عليها والتوقيعات التى كانت توقع عليها وتُمهر بها . كل هذه الأمور ضرورية لدراسة الوثائق التى تواجدت فى أشكال مختلفة واُكتشفت فى أماكن متعددة طوال عصور التاريخ . ومن هذه الوثائق ما وصلنا سليما معافى ومنها ما وصلنا فى حالة سيئة ، ويعتمد ذلك على أسلوب حفظ الوثيقة ونوع المكان الذى خبئت ووجدت فيه ، والظروف السياسية والمناخية التى تعرضت لها الوثيقة .

ولقد جاءتنا وثائق تختص بتاريخ مصر القديم مكتوبة على ورق البردى ، وهو الورق الذى توصل قدماء المصريين الى صناعته وأشاعوا استعماله فى كتابة وثائقهم وعنهم عرفه العالم القديم . أما وثائق العصور الوسطى فجاءنا جزؤها الأول مكتوبا على ورق البردى ، وجاءنا جزؤها الثانى مكتوب على ورق صنعه الصينيون من نبات الكتان ، وعنهم انتقل الى العرب وعرفوه باسم "الكاغد"(١) ، وعن العرب

(١) مازال لفظ الكاغد يطلق حتى الآن على الورق فى دول شمال افريقيا ، وبخاصة دولة ليبيا . وكان العرب قد توقفوا عن الكتابة على ورق البردى وتحولوا عنه الى الكاغد فى اوائل القرن الرابع الهجرى . وكان العرب آنذاك يستوردون الكاغد من سمرقند فقالوا : "ان كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر".

انتقل الى أوربا زمن الحروب الصليبية .

ولقد وصل الى أيدينا العديد من الوثائق الرسمية ، ترجع الى عصور تاريخية مختلفة تشتمل على : أوامر ملكية ومكاتبات رسمية ، واتفاقات ومعاهدات دولية ، أفادتنا كثيرا فى معرفة التاريخ السياسى وتاريخ العلاقات الدولية الدبلوماسية على مر العصور ، كذلك وصلت الى أيدينا وثائق خاصة تتصل بحياة الشعوب وتعكس صدى حياة هؤلاء الناس فى العصر الذى عاشوه ، وتأتى أهمية مثل هذه الوثائق فى دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعوب ، وهى دراسة ضنت بها مصادر التاريخ الاخرى المختلفة فى بعض العصور. ولنأخذ مثلا لنوع من هذه الوثائق وهى الوثائق التى يعرفها المؤرخون الآن باسم "وثائق الجنيزة"(١) ، وهى وثائق خاصة بالتاريخ الاسلامى الوسيط ، يرجع تاريخها الى عصر دولتى الفاطميين والأيوبيين ، أفادتنا كثيرا فى دراسة

---

(١) هى مجموعة الوثائق العربية اليهودية الناطقة باللسان العربى والمكتوبة بالخط العبرى ، والتى عثر عليها بحجرة الجنيزة (الدفن) الملحقه بمعبد اليهود بالفسطاط أواخر القرن التاسع عشر . ولقد توزعت هذه الوثائق التى يصل عددها الى ٦٠ ألف وثيقة على مكتبات اوربا وامريكا ولم يبق من حجرة الجنيزة فى الفسطاط الا جدرانها ، واكبر مجموعة من هذه الوثائق موجود الآن بمكتبه جامعة كمبردج بانجلترا ، ومتحف البودليان فى اكسفورد . وتحتوى هذه الوثائق على العديد من الموضوعات التى تتصل بالحياة الاجتماعية والتشريعية لليهود فى العصور الوسطى . فلقد شملت هذه الوثائق على : حجج شرعية ، قسائم زواج وقوائم عفش الزوجات قسائم طلاق ، تعاقدات بين شركاء ، محاضر جلسات محاكمات ، خطابات خاصة بين ازواج وزوجاتهم وبين تجار وعائلاتهم ، وبعض الكتب الدينية اليهودية .وللمؤلف مقال عن هذه الوثائق بعنوان :

"وثائق الجنيزة وأهميتها فى دراسة تاريخ مصر الاسلامية" . منشور بمجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، عدد سنة ١٩٧٣.

الحالة الاجتماعية والاقتصادية لمصر في هذين العصرين ، وغطت بذلك جزءا كبيرا كان أمره غامضا بالنسبة لتاريخ مصر في ذلك الوقت (١) .

ويتصل بدراسة علم الوثائق المعرفة الخاصة لبعض الأشياء المادية التي تعين الباحث على تفهم هذه الوثائق مثل معرفة الأختام التي كانت تختم بها والتفرقة بين هذه الأختام من عصر لعصر ومن دولة لأخرى . كذلك دراسة التوقيعات وقواعدها ومراسمها . ولقد قدّم لنا على سبيل المثال ، المؤرخ العربي الشهير القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى في صناعة الانشا " دروس هامة في هذا الخصوص وفي غيره من الأمور المتصلة بمراسم الكتابة في الوثائق ومراسم التوقيع واختلاف أسلوب التخاطب من شخص لآخر ، الأمر الذي يعد القلقشندي ، ومن قبله استاذه ابن فضل الله العمري اساتذة ومعلمين في هذا الميدان . ودراسة هذه الأمور ومعرفتها الجيده تجنب الباحث في التاريخ من الوقوع في اشراك الوثائق المزيفة ، وتعطيه الخبرة والحنكة اللازمة للباحث التاريخي المتعامل مع الوثائق التاريخية .

٥- وعلى الباحث في التاريخ المعرفة بعلم النّميات Numismatics أو علم المسكوكات (علم دراسة النقود) . ذلك لأهمية هذا العلم بالنسبة للمؤرخ لأن العملة هي الحَكم الفصل للمؤرخ اذا ما تعددت أمامه الآراء ، وهي الشاهد الصادق المعتمد دون جميع الروايات . كذلك فان العملة مرآة عصرها فهي تعكس حالة الدولة الاقتصادية والمالية ، ذلك لان تفحص هذه العملة ومعرفة نوع المعدن المصنعة منه يعطينا الدليل على الازدهار الاقتصادي لهذه الدولة ، أو دليل التدهور . ولقد افادتنا دراسة العملة في دراسة الحياه الاقتصادية في التاريخ الاسلامي ، وشرحت لنا مسائل تاريخيه وأجابت عن أسئلة اقتصادية لم تستطع المصادر الأخرى الاجابة عنها . ومن المعروف

(١) عن الافادة في الجانب الاقتصادي ، انظر كتاب المؤلف: " تجارة مصر في البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨٤ ومابعدها .

أن التعامل فى الدولة الاسلامية فى العصور الوسطى كان بالدينار الذهب والدرهم الفضة . ولقد جاءتنا دنانير ذهبية كاملة العيار (عيار ٢٤ قيراط) بينما جاءتنا دنانير أنقص من ذلك ، كذلك جاءتنا دراهم نُقرة نقية (١). بينما جاءتنا دراهم اخرى مخلوطة (٢) . كذلك جاءتنا من العصر الايوبى والعصر المملوكى فلوسا نحاسية . ومن دراسة هذه العملات استطعنا ان ندرس الحالة الاقتصادية والمالية فى العالم الاسلامى خلال عصور مختلفة . ولقد وجدنا عددا من هذه الدنانير والدراهم الاسلامية فى غير أماكنها وفى أقطار بعيدة ووجدنا بعضها فى دول أوربا اللاتينية . ولقد علمنا من دراسة هذه العملة أن هذه العملة كانت فى وقتها عملة التعامل العالمى وأنها كانت مطلوبة على مستوى العالم من أجل أسواق التجارة العالمية ما بين الشرق والغرب . وكذلك فان تواجد هذه العملات فى اماكن غير بلادها لدليل على علاقات هذه الدولة الخارجية مع غيرها من الدول المعاصرة لها .

كذلك يحتاج الباحث فى التاريخ الى ثقافة خاصة تعينه على تفهم الأصول التاريخية وعلى تجنب كثير من الأخطاء ، فلابد له من معرفة الظواهر الاجتماعية والخلقية والاقتصادية والجغرافية والادبية والفنية التى تتصل بالعصر الذى يؤرخ له . ذلك لان الحواجز التى كانت تحد نطاق البحث التاريخى أخذت تتداعى شيئا فشيئا مع نهاية القرن التاسع عشر . حتى لقد أصبح من القضايا المسلم بها الى الوقت الحاضر ، أن لا شىء يتعالى على نظر التاريخ أو تضيق عنه رحابه وأنه كل ما يقع من الانسان أو يقع عليه فى جميع مناحى الحياه عبارة عن موضوعات داخلة فى بحث المؤرخ واختصاصه بل لقد اصبح من الثابت المحقق انه اذا لم تكن للمؤرخين فعلا هذه النظرة الواسعة الشاملة فانهم بدون شك يعرضون علينا صورا ممسوخة مشوهة لكل عصر يحاولون تصويره .

---

(١) الدرهم النقرة النقى هو ما يساوى ١٢ درهم منه دينارا ذهبيا كامل العيار .

(٢) اطلق عليها الدراهم السوداء لقلة ما بها من فضة ولخلط معادن اخرى بها. وقد كان الدرهم النقرة فى عهد الدولة الفاطمية يساوى ٣ دراهم سوداء .

ولقد قال " فريمان " Freeman أنه يجب على المؤرخ أن يحيط علما بكل شيء " فلسفة وقانونا واقتصادا وعلم أجناس وجغرافية وعلوما طبيعية وذلك لما لهذه العلوم من صلة بالتاريخ "، كذلك لأن المؤرخ سوف يلقى اثناء قراءته للنصوص التاريخية أشياء من هذا القبيل (١) ، وذهب دونو (٢) Daunou الى ضرورة تواجد بعض الدراسات يستعين بها الباحث المؤرخ على فهم الوثائق التاريخية التى هى المصدر الرئيسى لدراسته . وجعل دونو الأدب فى مقدمة ما يجب على المؤرخ معرفته ودراسته لأنه يرى أن الشعراء هم الذين خلقوا فن القصص ، والشعراء هم الذين بدأوا التاريخ . ونصح بقراءة الروايات الأدبية المعاصرة للحدث حتى يستطيع الباحث عرض أبطال التاريخ وحوادثهم التى أحدثوها عرضا فنيا مقبولا . وذكر دونو بعضا من أسماء كبار الكتاب والفلاسفة أوجب أن يقرأ الباحث التاريخى لهم وهم : هيرودوت ، تاكيتوس ، ماكيافيللى ، وڤولتير وغيرهم من كبار الفلاسفة والأدباء المؤرخين (٣) .

والمؤرخ محتاج لدراسة علم الاقتصاد لتفسير الظواهر الاقتصادية الرئيسية فى التاريخ وأثر هذه الظواهر فى الأحداث التاريخية. ولقد اعترف المؤرخون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دورا بارزا فى جميع عصور النشوء الاجتماعى للعالم ونجاحه فى العصور القديمة أيام كان الانسان مضطرا الى أن يكافح من أجل وجوده كفاحا متصلا أعداء طبيعيين له مساويين له فى القوة وشدة المراس . ثم ان جميع الساسة يؤمنون أن الشئون الاقتصادية قد عادت فأصبحت مـــــرة

---

(١) Seignobos: Op. cit., p. 43.

(٢) Daunou: Cours d'études historiques, p. 228.

(٣) محمود قاسم ، المنطق الحديث ، ص ٢٣٨ .

أخرى فى مقدمة المطالب الانسانية . ولذلك أصبح التاريخ الاقتصادى فى الآونة الحاضرة محل اهتمام كبير فى دراسة الباحثين والمؤرخين . ولقد فسرت أحداث كثيرة فى التاريخ تفسيرا اقتصاديا وثبت سلامة هذا التفسير . ولقد فسرت أسباب حروب كثيرة فى التاريخ تفسيرا اقتصاديا خالصا ، كذلك فسرت ظاهرة الاستعمار الأوربى الحديث على أنها ظاهرة اقتصادية فى المقام الأول .

والعلاقات الاقتصادية بين الدول هى مؤشر للعلاقات السياسية بينهما ، فتقارب المصالح الاقتصادية بين الدول هو الذى يصنع سياساتها الخارجية ، وهذا أمر معلوم فى السياسة الدولية . ولقد أسرف بعض المفكرين الماديين أمثال ماركس وانجلز ، كما رأينا ، فى تفسير التاريخ تفسيرا اقتصاديا بحتا واعتبار الاقتصاد هو المسير وحده لعجلة التاريخ فى كل العصور .

والمؤرخ محتاج أيضا لدراسة علم الاجتماع لتفسير الظواهر الاجتماعية فى التاريخ ومعرفة مسبباتها ونتائجها . ولا يفرق ابن خلدون بين التاريخ وعلم الاجتماع ويعتبر الاثنين شيئا واحدا وذلك حين يقول (١): " وأعلم أن حقيقة التاريخ خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الأحوال " (٢) .

ولعلم الاجتماع نصيب كبير فى تفسير النصوص وتوجيه الأبحاث الى ناحية النظم والعادات وتوضيح مدى الكثير من الحوادث وتيسير السبيل فى التمييز

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه .

بين المسائل وفهم الغايات البعيدة التى رمى اليها نضال الشعوب وانطلاق التطورات الاجتماعية التى أوصلت الى انقلابات تكررت فى التواريخ .

ولقد تشعبت فروع الدراسة التاريخية فى العصر الحديث فلم تعد تقتصره على سرد التاريخ السياسى وأحوال أنظمة الحكم فى الدول بل تطرقت الى دراسة المجالين الاقتصادى والاجتماعى . وفى الدراسة الاجتماعية للتاريخ تعرض الباحثون لدراسة المجتمع الذى يؤرخون له فى أى عصر من العصور ، دراسة من حيث عناصر السكان الذى يتشكل منها وأجناس هذه العناصر . كذلك النظام الطبقى لهذه المجتمعات ودراسة أحوال الطبقات الحاكمة فيها ومظاهر الترف الذى كانت تعيش فيه والامتيازات التى كانت تتمتع بها ، كذلك طبقة العامة والمعاناة التى كانت ترزح تحت عبئها هذه الطبقة . وهنالك تفسير لكثير من الأحداث التاريخيه التى وقعت على مر العصور ترجع أسبابها الى عوامل وظروف اجتماعية ، وكانت هذه الأحداث عامل تغيير كبير فى بنيان العديد من المجتمعات. ولقد استهوى هذا النوع من الدراسة الكثير من المؤرخين الذين عرفوا بميولهم نحو الدراسات الاجتماعية .

ويحتاج المؤرخ ايضا الى دراسة علم النفس ، ذلك لأن حاجة المؤرخ له تأتى من ضرورة تقييمه لشخصيات التاريخيه ودراسته لسلوكهم ونوازعهم ليجد المبررات لكثير من الأحداث التى شاركوا فى صنعها . وينبه هذا العلم الباحث فى التاريخ الى الغوص فى داخل نفسيات الشخصيات التاريخيه الهامة لتحليل نفسياتها . كذلك يعلم علم النفس الباحث التاريخى بألا يثق فى النظرة الآلية لتسلسل الحوادث التى قادت بعض السياسيين الى أخطاء جسيمة ، كما حدث مثلا ، لنابليون بونابورت فى محاربته لأسبانيا وهو يجهل كل الجهل نفسية الأمة الأسبانية (١) . كذلك ينسحب هذا الأمر على ساسة الولايات المتحدة

---

(١) هورس : قيمة التاريخ ، ص ٧٨ .

الأمريكية الذين تورطوا فى حرب فيتنام دون دراسة نفسية الشعب الفيتامى .

وان تحليل نفسيات شخصيات التاريخ ، يسهل للباحث التاريخى مهمته ، وبدون هذه الحاسية السيكلوجية تتشابه الشخصيات أمام الباحث التاريخى وتضيع من أمام عينيه أهم المبررات والمسببات وراء وقوع أحداث التاريخ .
وعلم الجغرافيا ، من أكبر حلفاء التاريخ ، فلقد تحول هذا العلم من دراسة جافة الى دراسة تتصف بالصبغة الانسانية ، فلم تعد علماً أرضياً متصلا بالجيولوجيا ولا علماً سماوياً متصلا بطبقات الجو ولكن أصبح علماً من العلوم الانسانية التى تبحث فى الانسان من حيث علاقته بالمكان وبالزمان ، ومن هذا المنطلق ظهر الى الوجود علم الجغرافية التاريخيه ، وهو ثمرة تزاوج التاريخ بالجغرافيا ، فكان فى مولده ونموه وازدهاره خير وفائدة عظيمة لعلمى الجغرافيا والتاريخ .

وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير ، مع غيرها من المؤثرات ، فى الانسان وبالتالى فى التاريخ . فالسهول والجبال والصحارى والوديان والأنهار ، والبحار والغابات ، والموقع الجغرافى ، والمناخ ، والثروة الطبيعية ، كلها أشياء جغرافية وكلها تؤثر فى تكوين الانسان وفى سيرة حياته وفكره فى فلسفته وعلمه وشرائعه وتحدد غناه وفقره (١) .

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا فى التاريخ ما نلاحظه من تدخلها أحيانا تدخلا حاسما فى تغيير مجرى التاريخ ، فمثلا منع سقوط القسطنطينيه فى يد الأمويين منذ عهد معاوية دخول الامبراطورية البيزنطينية وأوربا الشرقية فى حوزة دولة الاسلام وأخر ذلك مدة ثمانية قرون . وذلك بسبب موقعها الجغرافى الحصين من ناحية البر ومن ناحية البحر وفشل كل المحاولات التى بذلها الأمويون فى تحقيق هذا الهدف .

---

(١) حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، ص ٣١ .

كذلك فان الجدب فى هضبة منغوليا بالصين وكثرة السكان فيها ، ولكون هذه المنطقة منطقة لفظ سكانى ، دفع المغول والتتار الى الهجوم على العالم الاسلامى ووطأ حضارته بأقدامهم بعد أن اندفعوا الى بلاده فى اعداد هائلة كأعداد الجراد لم تخلف وراءها أخضراً ولا يابساً .

كذلك يفسر بعض الجغرافيين المسلمون عدم نجاح هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة وعدم انتشار الاسلام فيها الى الطبيعة الجبلية القاسية لهذه البلاد التى تجعلها منطقة مقفولة لا يتيسر لدين عالمى مثل دين الاسلام أن ينتشر فيها . ولذلك كان من الطبيعى أن يثبت هذا الدين اقدامه فى الحجاز لينتشر منها ، فهى بلاد مفتوحة على بحرين عظيمين ومحيط يسهل عبورهم الى شتى بقاع الأرض .

وأيضاً تُعزى هزيمة نابليون بونابورت أمام الروسيا الى ارتحال قواته الى هذه البلاد فى فصل الصيف وهم يرتدون الملابس الصيفية ظنا منهم بسهولة اتمام هذه المهمة وعودتهم الى باريس سريعا ، لكن التكتيك العسكرى للروس جعل نابليون يتوغل داخل اراضيهم الشاسعة وحين فكر فى العودة منها الى موطنه كان الشتاء والجليد اكبر الأعداء الذين تصدوا لحربه ففقد بسبب ذلك نصف مليون شاب من خيرة شباب فرنسا من أصل ٦٠٠ الف شاب خرجوا معه فى هذه الحملة ، وكانت هزيمة نابليون فى حملته على الروسيا هزيمة جغرافية ، حملت معها بداية النهاية لحكم هذا الامبراطور العظيم .

والأمثلة كثيرة من هذا القبيل فى مختلف العصور وعلى مدى التاريخ . والمؤرخ عادة حينما يتعرض لتاريخ دولة من الدول أو مدينة من المدن أن يبدأ بجغرافيتها ويتخذها مدخلا طبيعيا لدراسته التاريخيه .

والمؤرخ محتاج ايضا للرحلة والارتحال ، ويلزمه لذلك حذاء متين وقلم

ومفكرة وخريطة تقوده في الطريق (١) . ولقد كان معظم مشاهير المؤرخين رحالة ، اتخذوا الرحلة والتجوال سبيلا لهم للحصول على المعلومات وللاطلاع على أحوال الأمم والشعوب التى تصدوا للتأريخ عنها ، ففي التاريخ القديم نرى هيرودوت و ثوكوديدس وتاكيتوس وبولبيوس . وفي التاريخ الاسلامي نجد ناصرى خسرو وابن جبير والادريسي والمسعودى وابن بطوطة . وفي التاريخ الحديث نسمع عن اسماء كثيرين من المؤرخين الرحالين تفوق الحصر وذلك بعد أن ذللت وسائل النقل وتيسرت وتنوعت وتعددت .

والرحلة توسع أفق الباحث في التاريخ وتمده بمعلومات اكثر مما في الكتب والمثل يقول " ليس من رأى كمن سمع " . والرحالة يعتد برأيه اكثر من غيره لأنه شاهد عيان ، وتأتى مادته غزيرة في بحثه خاصة فيما يتصل بأحوال البلدان الاقتصادية والاجتماعية التى يمر بها أو يقضى بها بعض الوقت ويعايش أهلها ويتعايش معهم .

والالمام بنواح من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصر ما ، تساعد كذلك على فهم تاريخه ، وهذه الفنون مرآة لعصرها ، وهي تبين كثيرا من خفايا أهلها ومن حياتهم الواقعة ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيهم (٢) ، كذلك الحال بالنسبة لفنون الموسيقى وما يرتبط بها من فنون خاصة وفنون فولكلورية .

هذا كله موجز عن الثقافة والاعداد والخبرة اللازمة لمن يتصدى للبحث في التاريخ والكتابة والتدوين فيه . وليس المقصود التعمق والتخصص الدقيق في كل هذه النواحي لذاتها ، فذلك أمر فوق طاقة البشر ، ولكن المقصود أن يكون الباحث التاريخي واسع الثقافة عظيم المدارك بعيد النظر وافر المعرفة . ويكفيه

---

(١) Worse : The Use of History, p. 225.

(٢) حسن عثمان : منهج البحث ، ص ٣٨ .

الالمام ببعض نواحي هذه الثقافات ومعرفة مصادرها وأماكن تواجد أصولها اذا ما احتاج الى مزيد من التخصص خدمة لموضوع بحثه . وهنا يتبادر الى ذهننا قول المؤرخ لوسيان فاثر " في هذا الصدد حيث يقول : " التاريخ يُصنع من الوثائق هذا حق ، ولكن عندما يتوفر وجود الوثائق . واذا دعت الحاجة الى كتابة التاريخ حتى في حالة انعدام الوثائق ، كان على المؤرخ أن يعمل أو أن يحاول العمل بأى شكل ، اذ أن كل ما هو من عمل الانسان يرتكن الى الانسان ويفيده ويعبر عنه ويشهد على وجوده وعلى نشاطه وذوقه وظروف معيشته " .

( ) ( ) ( )

الشروط الواجب توافرها في الباحث التاريخي :

ليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا ، أو من الممكن أن نطلق عليه مؤرخا ، كما يتخيل بعض الناس ، اذ لابد من توافر صفات ضرورية في المؤرخ ، وهي صفات ضرورية لأنها تحقق له الظروف وتمنحه الامكانات التي تجعله قادرا على دراسة التاريخ وتدوينه .

فالى جانب معرفة المؤرخ والمامه بالعلوم المساعدة للبحث التاريخي ، التي سبق أن أوردنا ذكرها ، هنالك شروط وصفات واجب توافرها فيه . ولقد حدد لنا "السخاوى" المؤرخ العربي الشهير ، منذ اكثر من ألف سنة مضت ، شروطا نرى أنها جديرة أن تتوافر في المؤرخ، ولقد اورد السخاوى هذه الشروط والصفات في كتابه : " الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ "[1] تحت عنوان ما يجب أن يتوافر في المؤرخ من الشروط. يقول السخاوى أن هذه الشروط هي :

---

(١) السخاوى : الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٢٧-١٣٠.

" العدالة مع الضبط التام الناشىء عنه مزيد الاتقان ، والتميز بين المقبول والمردود مما يصل اليه من ذلك وبين الرفيع والوضيع ، وعدم العداوة الدنيوية والمحاباة المفضية للعصبية المعبر بعضهم عنه بتجنب الغرض والهوى ، والفهم بحيث لا يكون جاهلا بمراتب العلوم سيما الفروع والأصول ، ويفهم الألفاظ ومواقعها خوفا من اطلاق الفاظ لا تليق بالمترجمين فيحصل التعرض له بالتنقيص والتغرير الذى يشين . ويحتاج للمؤرخ كذلك مصاحبته الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التى تختلف ".

ونستخلص من نص السخاوى أن المؤرخ محتاج للخصال التاليـة :

١- العدالـة ، أى النزاهة والصدق والأمانة . فيجب على المؤرخ أن يتحلى بهذه الصفات ، وأن يكون الصدق رائد بحثه فى عرض وجهات النظر المختلفة ، وفى النتائج التى يتوصل اليها فى بحثه . وعليه أن يتحرى العدالة فى نسبة كل ما يأخذه من مادة بحثه لصاحبه وألا ينسبها لنفسه . وليس من العدالة أن تنسب جهد غيرك لنفسك ، وتحصد ثمرة غيرك دون وجه حق. ولقد وجدنا الكثير من المؤرخين ، وبخاصة مؤرخى العصور الوسطى ، ينقلون الكثير عن غيرهم دون الاشارة اليهم ، ويدخل هذا الأمر فى باب السرقة شأنه أى سرقة أخرى .

٢- الضبط التـام ، أى تحرى الدقة فى استخلاص المعلومات . فمن الواجب على الباحث التاريخى أن يكون متيقظا لما يجمع من معلومات وأن يفتش عن الحقيقة أينما كانت وألا ينخدع بما هو مزيف أو مصطنع ولكى يصل الباحث التاريخى الى الحقيقة ، يلزمه الشك فى كل ما يعرض أمامه حتى يصل الى اليقين ، وليس الشك هنا مطلوبا حبا فى الشك ذاته ولكنه الشك البناء المؤدى الى عدم الوقوع فى الخطأ ، فالشك لازم للباحث التاريخى فى حالة تعارض الأقوال وتناقضها . وعلى الباحث أن يبتعد ، قدر امكانه ، عن الروايات التى انفرد بها راو واحد ،

فاذا كانت العلوم الطبيعية تتطلب التجربة والمشاهدة والقياس وتبتعد هذه العلوم كل الابتعاد على اطلاق النتيجة من مشاهدة واحدة فالتاريخ أولى بذلك لأنه بعيد عن المشاهدة ضعيف الاستنتاج بالقياس عديم التجربة .

وقد تتعدد الروايات التاريخيه فى أمر واحد فتتوافق أو تتناقض ، وحيث تتناقض يحسن بالمؤرخ أن يؤكد ، بادىء ذى بدء ، وقوع التناقض لأن ما يظهر من تناقض لأول وهلة قد يتلاشى لدى التحقيق والتدقيق . أما اذا ثبت التناقض فعلى المؤرخ ألا يتخذ موقفا وسطا بين الطرفين ، وأن يعيد النظر فى الروايات التى أمامه علّه يكتشف العيب فى احداها ، ولعله يجد ما يجعله يثق فى واحدة دون الأخرى . واذا تعذر عليه ذلك فعليه عرض القضية كما هى ، بآرائها المختلفة ، وترك الحكم النهائى عليها للقارىء . وكثيرا ما يكون أمر العدالة والضبط عند الراوى الواحد ليس جامعا مانعا ، فيجوز أن يكون الراوى عادلا ضابطا فى بعض ما يقول ويكون على عكس ذلك فى بعض أقواله الأخرى ، ولذلك وجب على الباحث التاريخى المدقق أن ينظر فى كل خبر من أخبار الراوى على حدة ويطبق عليها موازين الرواية العلمية الدقيقة .

٣- التمييز بين المقبول والمردود ، أى وجود ملكة النقد عنده والقدرة على تمييز الأحداث وتحليلها ووزنها .

فعلى المؤرخ أن يحذر الاستسلام الكامل والتصديق الأعمى للأصول ، اذ يجب عليه أن يكون حريصا واعيا وناقدا محللا خبيرا ، وأن يخضع هذه الأصول لميزان تحليلى دقيق . ومن المحتم على المؤرخ أن يتعرف على شخصية المؤلف لكل أصل من أصول مادته ، ومعرفة ميوله ونزعاته ودرجة علمه وذكائه واتصاله بالحوادث التى يروى أخبارها . كذلك عليه أن يتأكد من صحة تواجده زمن الراوى عنه أو معاصرته إياه لاثبات صحة سند ما روى عنه . كذلك لابد له من الوقوف على طبيعة الزمن الذى كتبت فيه المادة التاريخية وطبيعة المكان الذى

سطرت فيه .

ويجب أن ينحصر شك الباحث التاريخي ، لاستخراج الحقيقة التاريخية ، في الراوي ، هل هو صادق مجرب عليه الصدق ، أم هو مجرب عليه الكذب مزيف للحقائق مزين للخطأ . ولذلك يترتب على المؤرخ أن يلزم الحذر من قول الرواة الذين ينتمون الى شيعة معينة أو يدينون بمذهب من المذاهب أو يتعصبون لحزب من الأحزاب . كذلك عليه أن يتيقن من رواية صاحب مادة هل رواها تحت ظروف قهرية وتحت عوامل ضغط واكراه ، أو تحت اغراء مادى ؟ وهل لمدون الأصل مصلحة ما في ذكر بعض المعلومات على غير حقيقتها ، كما في حالة أخبار كبار الشخصيات والحكام . ولقد حض القرآن الكريم على ضرورة القرآن الكريم على ضرورة التثبت من الروايات لقوله تعالى في سورة الحجرات (يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)[1]. كذلك حث الرسول على أن هنالك من يدس عليه القول وأعلن سوء عاقبة هذا العمل ووصى المسلمين أن يتنبهوا لذلك بقوله (ص) : " من حدث عني بحديث كذب (أو يرى أنه كذب) فليتبوأ مقعده من النار" . ومن هذا المنطلق ظهر في المجتمع الاسلامي علماء " الجرح والتعديل " لتهذيب أحاديث رسول الله مما علق بها من دس وزيادة .

كذلك يجب على الباحث التاريخي أن يتحرى عن الراوي كل ما يتصل بفكره وحواسه ، هل كان يتمتع بحواس سليمة وعقل صحيح أم كان دون ذلك ؟ وهل تمتع الراوى بجميع شروط المشاهدة العلمية ، وهو أن يكون في مكان يتمكن منه من مشاهدة الحوادث مشاهدة صحيحة ، أو أن يكون الراوى ، أثناء المشاهدة ، بعيداً عن الغرض ؟ وهل دوّن الراوى ما شاهده وقت وقوعه أم دوّنه بعد وقت ؟

---

(١) الحجرات ، آية ٦ .

٤- الحياد والموضوعية وعدم التعصب :

والباحث التاريخي يشبه القاضي في حكمه على الأحداث ، وكما هو مطلوب من القاضي أن يكون موضوعيا محايدا وغير متعصب في حكمه في قضاياه كذلك الباحث التاريخي عليه أن يكون كذلك في اصدار أحكامه التاريخيه فعليه أن يكتب بعيدا عن المجاملة ، أو الرياء ، أو النفاق ، أو التعصب . لأنه لا يكتب لنفسه وانما يكتب للتاريخ ، والتاريخ لا يغفر لمن يدس عليه أو يزيف فيه . ولقد نسي أولئك المتعصبون والمتزلفون والمتملقون أن كتاباتهم سوف تتعرض يوما للنقد والتجريح ، وتتكشف ساعتها سوءاتهم بعد أن يكونوا قد غادروا هذه الحياة فلا تبق لهم فيها من ذكرى الى اللعنة والدعاء عليهم بسوء الحال .وان الكتب التي تكتب عن سير شخصية أو تمتدح فترات حكم معينة أو دول محددة ينظر لها ، في الغالب ، نظرة شك لأنها ، غالبا ما تكون ، أخطر كتب التاريخ . واكتشاف الكذب في سير هذه الشخصيات جعل الكثيرين يتهمون التاريخ بالكذب حتى أن بعضهم أطلق عليه " مدرسة الكذب " وهذا اجحاف في حق التاريخ . ويجب أن نعلم أنه متى اهتزت الثقة مرة بالمؤرخ لازمته هذه الوصمة في كل ما يكتب . وهنالك في التاريخ أدلة وشواهد على عدم الحيدة والتعصب في بعض الكتابات التاريخية ، خصوصا في تلك الكتب التي افرزتها حركات الشعوبية والقومية ، وفي كل ما أفرزه التعصب القبلي والعرقي من كتابات ، صار غير معترف بها ولا ينظر لها ، وعدت كماً لا احترام له ولا تقدير ولا يساوي قيمة ما به ثمن الورق الذي سطر عليه .

٥- الفهم بحيث لا يكون جاهلا بمراتب العلوم :

وفي هذا الشرط قرر السخاوي أهمية الثقافة العامة للباحث التاريخي كذلك أهمية العامه بالعلوم المساعدة ، التي سبق لنا ذكرها ، فكل هذه الأمور عوامل مساعدة لبحثه وادوات يتسلح بها في مواجهة تحديات البحث .

وحيث أن المعرفة الانسانية حقل متصل وعائلة يكمل بعضها البعض ، فعلى الباحث التاريخي ألا يغلق على نفسه باب تخصصه وينأى بمعزل عن جميع ما يدور حوله . ولقد رأينا المؤرخين القدامى وبخاصة مؤرخي اليونان ومؤرخي المسلمين يجمعون في شخصهم بين عديد من التخصصات ويتزودون بكل أنواع المعارف فنرى المؤرخ عالما دينيا وعالما لغويا وفيلسوفا وطبيبا ورياضيا وغير ذلك. لذلك كتب هؤلاء في كل العلوم والفنون . وزاد في معرفتهم وثقافتهم رحلاتهم التي ارتحلوها وارتيادهم لكثير من بلاد عالمهم فصقلتهم الرؤية وأثرت فكرهم المشاهدة ، فجاءت لذلك كتاباتهم وافية شافية وجاءت معلوماتهم التاريخية كاملة متكاملة .

٦- أن يصاحب الباحث التاريخي الورع والتقوى :

عني السخاوى بذلك أن يتق الباحث التاريخي الله فيما يبحث بأن ينهي بحثه على الوجه الأكمل وأن يجعل البحث لذات الحقيقة لا رغبة في احراز شهرة أو طلبا لجمع مال . فكل ما يكتبه المؤرخ محاسب عليه ، فاذا كان لوجه الحقيقة حمد وشكر واذا كان ابتغاء ارضاء الناس بالباطل وجمع المال بالسحت ذم وخسر . فكل ماهو مادى زائل والشيء الخالد هو العمل الصالح والنتاج الصادق . وليس هنالك ماهو أقسى على نفس انسان من أن يعرف الناس غش صاحبها ودلسه ويبقى ما خلّفه وراءه شاهدا ادانة عليه أبد الدهر . وأن الكسب واحراز الثروة لأمر جائز ومشروع في التجارة والبيع والصنعة ، لكن الكسب على حساب التاريخ هو أمر غير جائز على الاطلاق ، وهو ليس بكسب وانما هو خسران مبين .

٧- الجد والعزيمة والصبر :

وعلى الباحث التاريخي أن يكون جادا في بحثه ، وأن يعمل فيه بهمة ونشاط وحماس واطراد . كما أن عليه أن يتفرغ لهذا البحث فلا يجعل شيئا يشغله عنه ، كذلك عليه ألا يشغل نفسه بأكثر من بحث في وقت واحد

حتى لا يتبدد مجهوده وتتشتت أفكاره وتتداخل معلوماته . وعلى الباحث أن يعايش بحثه معايشة كاملة ويجعله دائما ماثلا فى ذهنه ومركز تفكيره ، حتى تتفتح له الأبواب المغلقة ويسير بسفينة بحثه الى بر الأمان ، وينتهى منه على أكمل وجه وفى الوقت الذى حدده له بقدر الأمكان .

أما اذا تكاسل أو تراخى وانشغل عن بحثه بشيء آخر ، تعثر به الطريق وفقد حماسة البحث وجديته وبالتالى لا يحقق ما يصبو اليه وما يريد . وعلى الباحث ألا ييأس أو يقنط ، وعليه أن يتعلم كيف يتخطى العقبات وكيف يخترق الحواجز ولا يستسلم للهزيمة ، فليست كل الطرق ، دوما ، مفروشة بالرياحين ، والأشواك تكون بالقطع نصيب من مشى طريق الورود . وبالجد والعزيمة والمثابرة يحقق الباحث ما يريد ويصل الى ما يبغى ، ويحقق حلمه فى ظهور وليده حين ينتهى من بحثه ويفرغ من مخاضه .

ويحتاج البحث فى الوثائق والمخطوطات جلدا وصبرا زائدين ، لأن الوثائق غالبا ما تتوزع فى أماكن متفرقة ، وغالبا ما يصعب الوصول اليها والحصول عليها . وفى بعض الأحيان توجد الوثائق مضطربة ، وفى بعض الأحيان الأخرى ناقصة أو متآكلة ، حسب ظروف حفظها ، فتحتاج لذلك معالجة خاصة فى التعامل . أما المخطوطات ، فلأنها مكتوبة باليد وكثيرا ما يصعب فك خطوطها ، وعادة ما تكون غير مفهرسة أو مبوبة ، تلزم الباحث التاريخى أن يقرأها جميعها . وقد يفرغ الباحث من قراءة مخطوط مكون من عدة مجلدات دون أن يحصل منه على كلمة واحدة تفيد بحثه . فعليه ألا يحزن أو يكتئب ، لأنه فى الحقيقة استفاد من كل سطر قرأه ، لأنه ان لم يجد ما يفيده فى موضوع بحثه قد يفيده فى موضوع بحث آخر مستقبلى . وقد يفتح له هذا الكتاب الباب لفكرة بحث آخر يبدأ به حين يفرغ من بحثه ، فتزداد بذلك الموضوعات التى يبحث فيها ويغزر بذلك انتاجه ويزداد . وليعلم الباحث أن كل كلمة جديدة يقرأها فى كتاب تدفع به خطوات بعيدة فى خضم بحر العلم الواسع الذى ليس له قرار ولا نهاية .

٨ - التريث والتأني :

وجب على الباحث التاريخي أن يتريث في أحكامه وأن يتأني وقديما قالوا : " من تأنى نال ما تمنى " وقالوا أيضا : " في التأني السلامة وفي العجلة الندامة " . فالباحث التاريخي هو أولى الناس بالتأني والتحلي بالرزانة، لأنه لا فائدة ترجى من العجلة في الأمر والاسراع في اصدار الحكم لأن العجلة تولد الخطأ . والتأني يعطي الباحث الوقت الكافي لفحص معلوماته ودراستها وتحليلها والحكم عليها في النهاية حكما صحيحا تكون نفسه قد أطمأنت اليه واستقرت عليه . وان الكتابات الهوجاء المتعجلة كثيرا ما ثبت خطأها وكثيرا ما تراجع عنها أصحابها بعد أن زال سبب عجلتهم وبعد ما تبين لهم خطأ ما توصلوا اليه من حقائق ونتائج .

هذه هي تقريبا أهم الصفات والشروط الضرورية والواجبة لمن يتصدى للبحث التاريخي ، وكلها تهدف في النهاية ، كما قلنا ، الى كتابة بحث تاريخي علمي صحيح مبني على القواعد والمنهج التاريخي العلمي الصحيح .

( ) ( ) ( )

الفصل السادس

المنهاج الحديث الصحيح للبحث التاريخى

كيف تكتب بحثاً تاريخياً صحيحاً :

يجب على الباحث التاريخى أن يعرف كيف ينتهى فى عمله بكتابة بحث تاريخى علمى مؤيد بالأسانيد التاريخية الصحيحة . ويلزم لا تمام ذلك أن يعرف الباحث كيف يكتشف مادته العلمية وأن يكون ملماً عارفاً بأماكن تواجدها ، كذلك يعرف كيف يجمع هذه المادة وكيف يطوعها ويهذبها ويأخذ ما هو مفيد منها لموضوع بحثه ويترك ما هو ليس بمفيد . ثم يعرف كيف يرتب هذه المادة وفقا للمنهاج والخطة التى وضعها لنفسه ، ثم يعمل النقد والتمحيص فى هذه المادة ، وفى النهاية يؤلف منها بحثه العلمى المعبر عن ذاته . وتنحصر خطوات البحث التاريخى الصحيحة فى الخطوات التالية وحسب الترتيب الموضوع .

١- اختيار الموضوع والاستقرار عليه :

فى الغالب ما تكون عملية اختيار موضوع البحث التاريخى عملية تخص الباحث الذى تعدى مرحلة الدراسة الجامعية . ذلك لأن الطالب فى مرحلة الجامعة لا يكون ملزما باعداد بحث تاريخى متكامل فيه الابتكار وفيه اضافة جديدة الى حقل التاريخ . ويتعلم الطالب الجامعى ، خلال سنوات تعليمه الجامعى ، كيف يتعود على ارتياد المكتبات وكيف لا يتهيب الاطلاع على المصادر والمراجع المتنوعة فى كل فرع من فروع التاريخ . وكل الذى يطلب من هذا الطالب ، خلال سنوات دراسته ، اعداد بحوث بسيطة [illegible] مطروقة يظهر فيها شخصية ويتعلم من خلالها كيف يستفيد من مادة غيره ، وكيف

يثبتها فى بحثه ويشيد اليها فى حواشيه . ويكون اختيار الطالب لموضوع بحثه ، فى هذه المرحلة ، بتوجيه من استاذ مادة ، لأن الطالب لا يستطيع أن يميز بين ما بُحث ومالم يُبحث ، ولذلك يوفر عليه أستاذه المشقة ويدله على أقصر طرق البحث . كذلك فان نظام الدراسة الجامعية ، لا يسمح بتعمق الطالب فى البحث ، ويترك ذلك لمرحلة الدراسات العليا - ما بعد درجة الليسانس - وفى مرحلة الدراسة العليا يُترك للباحث حرية التخصص وحرية اختيار نوع الدراسة التى يهواها ويعشق البحث فيها ، فهو يدخل آنذاك نطاق الباحثين ، الذين نخاطبهم فى هذا المجال وندلهم على منهاج البحث الصحيح .

والباحث التاريخى يترك لنفسه حرية اختيار الموضوع الذى يروق له فى مجال التخصص الذى قصد التخصص فيه . واذا كانت دراسة هذا الباحث تخضع لاشراف مشرف معين ، فعلى المشرف ألا يتدخل فى اختيار الموضوع وتقتصر مهمته على التوجيه والتصحيح . والمطلوب من الباحث التاريخى أن يقدم لنا بحثا أصيلا مبتكرا وأن يكتشف لنا حقائق تاريخيه متبعاً فى ذلك المنهج العلمى السليم . ويأتى اختيار موضوع البحث نتيجة لقراءة واسعة فى مجال التخصص ، واطلاع دقيق على قوائم الموضوعات التى بحثت وكتب المراجع (البيلوجرافيا) ، فبعد هذه القراءة وهذا الاطلاع يضع الباحث يده على موضوع بحثه الجديد .

وينبغى على المبتدئ فى البحث التاريخى أن يراعى بعض المسائل التى تتصل بعملية البدء فى البحث ، وهى أنه ليس من الضرورى دائما تحديد عنوان البحث فى أول الأمر ، بل يكفى للباحث تحديد العصر الذى سيبحث فيه ، والجوانب التى تصلح فيه للبحث . أما التحديد النهائى فانه يأتى بعد قطع شوط طويل فى القراءة والاطلاع والتعمق فى ميدان البحث . كذلك على الطالب الا يختار موضوعا طويلا أو يتعرض لدراسة فترة زمنية طويلة يتشتت خلالها جهده ، وتتوزع أفكاره . وكلما كان الموضوع محدودا ، ملموم الجوانب ، واضح

الملامح كلما كانت معالجته أسهل وأمتع ، وكلما فرغ منه الباحث في الوقت الزمني الذى حدده عند بدئه لعملية البحث .

٢- القراءة العامة فى الموضوع :

على الباحث ، في بدء عملية بحثه ، أن يقرأ كثيرا عن موضوع بحثه في المراجع العامة التى تعرضت بالحديث عن العصر الذى يقع فيه موضوع بحثه . وترجع فائدة المراجع العامة الى ما تعطيه للباحث من أفكار عامة عن موضوعه . كذلك تدله هذه المراجع الى بعض المصادر الأصلية التى عليه أن يرجع اليها ، وقد سبقه الى ذلك اصحاب هذه المراجع. وتساعد القراءة العامة فى المراجع العامة الباحث على معرفة ما تم بحثه فى موضوعه وما لم يتم ، وبذلك يتكشف النقاط الأساسية الضرورية التى يجب أن يتصدى لبحثها .

كذلك لابد للباحث أن يستعين بالاطلاع على المقالات الواردة فى دوائر المعارف (الانسيكلوبيديات) فيأخذ بعض الأفكار عن موضوعه ، اضافة الى الاستفادة من قوائم المصادر والمراجع التى عادة ما تذكرها هذه الدوائر فى آخر كل موضوع وذيل كل بحث. كذلك عليه الاطلاع على مراجع الببليوجرافيات ، التى تتناول عصر بحثه ، ومثل هذه المراجع تعطى ملخصات مختصرة لما تحتويه المصادر المتصلة بموضوع كل بحث .

بعد عملية المسح الشاملة هذه ، وبعد القراءة العامة فى الموضوع يستطيع الباحث أن يكوّن رأياً واضحاً عن المسائل البارزة التى سيتناولها بالبحث ، بعد أن تتفتح له الرؤية لموضوع بحثه ، ويستطيع من خلالها أن يحدد هوية الطريق الذى سوف يسير فيه .

٣- حصر مصادر المادة التاريخيـــة :

يستطيع الباحث التاريخي أن يحصر مصادر بحثه ، بعد تصفحـــه للمراجع التاريخيه العامة ، ودوائر المعارف ومراجع الببلوجرافيا . كذلـــك يستطيع تحديد أماكن تواجدها من خلال التعامل مع المكتبات العامة ودور الوثائق وأماكن حفظها . وينتج عن البدء بالعمل في المصادر ، التعرف على مصـــادر أخرى واكتشافها . واذا كان عدد المصادر الذى يتوصل اليه الباحث ، فـــى بدء بحثه ، يكون قليلا ، الا أنه مع مرور الزمان يزداد هذا العدد ويزدحـــم ويغص بالمصادر اذا ما تعمق الباحث فى موضوع بحثه .

واذا ما حدد الباحث التاريخي مكان تواجد مصادره ، عليه أن يثبـــت هذه المصادر في مذكرة عنده ، يدوّن فيها أرقام هذه المصادر ورموزها في أماكـن تواجدها . وتأتى فائدة ذلك في توفير وقت الباحث وعدم رجوعه الى هذه الأرقام فى كل مرة يتردد فيها على هذه الأماكن ولابد للباحث أن يكون قد تعلم ، فـــى فترة تعليمه الجامعي ، كيفية التعامل مع فهارس المكتبات ليسهل له الحصـــول على الكتب المطلوبة لبحثه . كذلك يستطيع الباحث أن يضع لنفسه بحثا فـــى المصادر بأن يخصص صفحة ، على الأقل ، فى هذه المذكرة لكل كتاب يطلـــع عليه ، يلخص فيها أهم محتويات الكتاب الذى يطلع عليه ، وأهم ما أفاده منـــه . وعند نهاية بحثه يجد الباحث أنه قد تم له عمل بحث فى المصادر ، ســـوف يعينه ، دون شك ، فى أبحاثه المستقبلية . وعلى الباحث ألا ينسى أن يدون فى كل صفحة اسم الكتاب واسم مؤلفه بالكامل ، ومكان طبعته وتاريخ الطبعة .

وليست المكتبات العامة ودور الكتب وحدها هى المنهل الذى يجـــد الباحث فيه مصادر بحثه ، بل هنالك دور المحفوظات والأرشيفات الحكوميـــة ودور الوثائق يبحث فيها عن مصادر بحثه . كذلك قد يجد الباحث مصـــادر بحثه عند أشخاص متخصصين فى مجال تخصصه ، او الهاويين الاحتفاظ بالمكتبات الخاصة التى قد تحتوى على بعض الكتب أو المخطوطات العامة . وقد تكـــون

عند هؤلاء بعض الأفكار عن موضوعه ، قد تساعده هذه الأفكار في موضوع بحثه وتفتح أمامه آفاقا جديدة كان يجهلها . كذلك فان الاتصال بذوى الخبرة والمعمرين الذين لهم صلة ببعض أحداث التاريخ الحديث والمعاصر مفيد للغاية لمن يدرسون التاريخ الحديث .

وليست الكتب والمخطوطات وحدها هي كل مصدر مادة الباحث التاريخي ، فان من هذه المصادر كل ما يتصل بآثار الانسان الذى يعالج الباحث عصره أو موضوعه ، فيما يتمثل من ملابس ومساكن ومبان وأسلحة وأدوات منزلية ونقوش وكل ما يدخل في نطاق علم الآثار . لذلك من الضرورى للباحث في التاريخ أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذى يدرس تاريخه . واذا أريد له أن يرتحل الى المكان الذى وقع فيه بحثه خلال التاريخ فعليه الارتحال للوقوع على اطلاله وعلى ما تبقى من مخلفاته ، وبذلك يستطيع الباحث أن يتعايش مع الموضوع الذى يقوم بدراسته ويتفاعل معه تفاعل من يعيش أحداثه .

٤ - مفتاح البحث ودليله :

قبل جمع الباحث مادة بحثه العلمية ، عليه أن يضع مفتاحا ودليلا لهذا البحث . ويحوى هذا المفتاح على عناوين الفصول التى يقسم اليها بحثه ، وقد تكون هذه الفصول ثلاثة أو أربعة حسب ما يراه من طبيعة بحثه . كذلك يقسم كل فصل من هذه الفصول الى موضوعات أصغر يضع لها العناوين المناسبة . ويعطى الباحث لكل فصل من فصول بحثه حرفا أبجديا يضعه بين مربع ، ولتكن هذه الحروف : أ ، ب ، جـ ، فيضع كل منها في مربع كالآتى : [أ] ، [ب] ، [جـ] .

ويقسم كل حرف الى جزئيات تحمل الأرقام : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، فيكون بذلك الفصل الأول [أ] يحتوى على : [أ] (١) ،

[أ] (٢) ، [أ] (٣) ، وهكذا ، كذلك الفصل الثاني [ب] فانه يحتوى على : [ب] (١) ، [ب] (٢) ، [ب] (٣) ، وهكذا .

وبذلك تتحول عناوين الفصول وعناوين جزئيات الفصول الى رموز من حروف وأرقام .

ولنطبق هذا القول عمليا ، ولنأخذ مثلا عنوانا لموضوع بحث وليكن : "الفتح الاسلامى للأندلس" . ولنفترض أن الباحث يقسم هذا الموضوع الى ثلاثة فصول رئيسية هى : [أ] حالة بلاد أسبانيا قبل الفتح ، [ب] عمليات الفتح ، [جـ] اتمام الفتح . وقد يقسم الفصل الأول الى العناوين الجزئية الآتية : (١) موقع أسبانيا ، (٢) سكانها قبل الفتح (٣) الوضع السياسى والاجتماعى . فاذا ما قلنا : [أ] (١) فاننا نعنى بذلك : موقع أسبانيا ، واذا قلنا : [أ] (٢) فنعنى بذلك : سكانها قبل الفتح ، واذا قلنا : [أ] (٣) فنعنى بذلك : الوضع السياسى والاجتماعى بها قبل الفتح .

ويستعاض بهذه الرموز عند نقل مادة البحث من المصادر بدلا من كتابات هذه العناوين باستمرار وتكرارها . وعلى الباحث أن يصطحب معه هذا الدليل فى كل مرة يذهب الى مكان ليجمع منه مادة بحثه ، وسوف يساعده هذا الدليل بعد ذلك فى عملية كتابة بحثه ، وهى أهم مراحل البحث التاريخى .

٥- <u>كيفية جمع المادة العلمية :</u>

فى هذه المرحلة يتصدى الباحث التاريخى لجمع مادته العلمية من المصادر والمراجع والوثائق والمخلفات الأثرية ، وكل ما يمكنه أن يمده بالمادة العلمية . وبالطبع لا يمكن للباحث فى هذا العمل أن يعتمد على الذاكرة فحسب ، اذ لابد له أن يسجل هذا العمل وأن يدونه فى أنصاف أوراق من

الورق المقوى أو الورق العادى . ويُطلق على هذه الأوراق اسم " الفيش " ومفردها " فيشة ". هذه الفيش هى التى يسجل ويدون فيها الباحث المادة التى يحصل عليها من مصادره . وعلى الباحث أن يضع سطرا فى آخر هذه الفيشة . يكتب تحت اسم المؤلف الذى ينقل منه المادة العلمية بالكامل ثم اسم الكتاب أو المصدر الذى ينقل عنه بالكامل ومكان طبعته وتاريخ هذه الطبعة . وعلى الباحث أن يتبع ذلك فى كل فيشة من فيشه مهما ارتفع عددها . وعليه أيضاً أن يدوّن ذلك ، ويدون ما ينقل من مادة بخط واضح يقرأ بسهوله ، وأن تكون الكتابة بالحبر حتى لا يُمحى ما يدون فيها .

وعلى يمين الفيشة يضع الباحث الرمز والرقم الذى حدده لمادة الموضوع الذى ينقل عنه ، فاذا ما كان ينقل فى هذه الفيشة معلومات عن : سكان أسبانيا قبل الفتح ، يضع الرمز والرقم :

أ (٢) بدلاً من أن يكتب هذا العنوان . واذا ما كان ينقل عن :

الوضع السياسى والاجتماعى بأسبانيا قبل الفتح ، يضع الرمز والرقم أ (٣) ، وهكذا . واذا لم تتسع الفيشه للمادة التى ينقلها ، عليه أن يكمل فى فيشة أو فيش أخرى ويكتب عليها مثل ما كتب على الفيشة الأولى ، ويعطيها أرقاما مسلسلة حتى يعرف فيما بعد اتصال الكلام عن هذه الفقرة فى عدة فيش متتابعة . وعلى الباحث أن يضع فى أعلى الفيشة من ناحية اليسار رقم صفحة الكتاب أو المصدر الذى ينقل عنه .

ويجب على الباحث أن يكتب على وجه واحد للفيشة ولا يكتب على الوجهين حتى لا يفوته النظر الى شىء ما دوّن فى ظهر الفيشة . كذلك عليه أن ينقل ما يأخذه من المصدر بنصه دون تحريف ، لأن التعديل يأتى بعد ذلك عندما يشرع الباحث فى كتابة البحث . كذلك على الباحث اذا استعمل مصدراً من طبعة معينة أن يستمر فى الأخذ منها حتى النهاية ، ولا يلجأ لطبعة أخرى لاختلاف عدد صفحات الكتب من طبعة لأخرى الأمر الذى يؤدى

الى الاضطراب .

وعلى الباحث أن يجهز مظاريف كبيرة بعدد فصول بحثه ويكتب على ظهر كل مظروف رمز الفصل الذى ستوضع فيشه فيه ، فالمظروف الذى ستوضع فيه فيش الفصل الأول يكتب عليه الحرف [أ] والثانى الحرف [ب] والثالث [جـ] وهكذا .

وعلى الباحث أن يضع فى كل ظرف الفيش الخاصة به ، دون ترتيب ،ويترك ترتيب الفيش الى مرحلة البدء فى الكتابة.وباستمرار جمع المادة يجد الباحث امتلاء مظاريفه وتضخمها وبذلك يطمئن الى توفيقه فى جمع مادة بحثه .وعلى الباحث أن يتحسس بين آن وآخر مظاريفه ، فاذا ما وجد مظروفا مازال نحيلاً خاوياً فعليه الاهتمام بفصل هذا الظرف وعليه مضاعفة الجهد فى البحث عن المادة العلمية التى تملأ هذا الظرف وتتحول به من ظاهرة النحافة الى ظاهرة البدانة فيطمئن بذلك على سير عملية جمع المادة العلمية سيرها الطبيعى .

٦- مرحلة التنسيق بين المعلومات وترتيب المادة المجموعة :

وتشبه مهمة الباحث فى هذه المرحلة مهمة "المايسترو" الذى ينسق بين العازفين ويحكم عزف مختلف آلاتهم ليخرجوا لحناً جميلاً متجانساً - مسموعاً لا اضطراب فيه ولا نشاز . وذلك بسبب مراعاته الأصول والقواعد الموسيقية الثابتة مستخدماً مهارته الخاصة والحكمة فى القيادة .

والباحث هنا قد لا يتقيد بخطة البحث الرئيسية التى وضعها فى أول بحثه ، وله أن يعدل أو يغير فيها وفق متطلبات البحث . فقد يجد مادة غزيرة فى فصل ، الأمر الذى يضطره الى قسمته الى فصلين . وقد يجد أيضا مادة قليلة فى أحد الفصول ، الأمر الذى يجعله يضم هذا الفصل الى الفصل السابق أو اللاحق له ، وهكذا فيسير الأمر معه حسب طبيعة المادة التى جمعها. وقد يضطر الباحث الى اضافة فصل جديد ظهرت له أهميته اثناء عملية الجمع ،

كما أنه قد يضطر الى أن يلغى فصلا لو تبين له عدم جدوى اثباته فى بحثه ، وهكذا . فالباحث لديه المرونة وحرية الحركة بما يتوائم مع ظروف بحثه ومحاولة اخراجه على أكمل وجه دونما نقصان أو حشو لا فائدة منه .

والباحث فى هذه المرحلة يقوم بتنظيم وترتيب حقائقه التاريخية الواردة فى بحثه ويقوم بالتدليل عليها ، مع ضرورة مراعاة التجانس فيما بينها والتسلسل الزمنى . كذلك مراعاة المنطقية والتسلسل الموضوعى بحيث تكون نهاية كل حقيقة بداية ومدخلاً للحقيقة التى تليها ، وهكذا يتم الترابط التام بين حقائق البحث ، وذلك لأن من أهم مظاهر البحث الناجح فى النهاية الانسجام التام بين أجزائه والترابط الكامل بين موضوعاته والعلائق المنطقية التى تربط بين أحداثه ، تربط بين حقائق الماضى بما قبلها وما بعدها ، وذلك لتبيان التطور فى التاريخ .

٧- إعمال الفكر فى المادة المجموعة :

بعد جمع المادة العلمية للبحث على الباحث مراجعة هذه المادة وحصرها من ناحية الكم حتى يتأكد أنه وَفّى كل فصل من فصول بحثه حقه بالكامل . بعد ذلك على الباحث أن يعمل الفكر فى مادته المجموعة ، وأن يرتب الفيش ويجمع الفيش المتشابهة فى موضوعها مع بعضها البعض ، ومراجعة هذه الفيش جيدا عسى أن يكون هنالك نقص فيها أو هنالك تناقض ما ، وما بينها من اتفاق وأن يدوّن ملاحظاته بهذا الصدد .

وعلى الباحث بعد ذلك معاودة قراءة الفيش بامعان ، وبعد ذلك يتركها جانبا لفترة قليلة من الوقت لتختمر الأفكار فى ذهنه وليُلقى عليها ضوءا من عصارة عقله حتى يتبين له كيف يبدأ الكتابة حين تحين له الفرصة الملحة للكتابة وتفرض نفسها عليه .

وفترة التأمل والتفكير هذه فترة ضرورية للبحث لأنها فترة اعداد للذهن

والجهد للمرحلة الأساسية القادمة في البحث وهي مرحلة الكتابة . ويجب على الباحث ألا ينتقل الى مرحلة الكتابة الا بعد أن يكون راضياً عن مادته العلمية واثقاً أنه وفّى الموضوع حقه من ناحية جمع مادة بحثه ، وأنه تزوّد بكل الأسلحة الضرورية لخوض معركة الكتابة .

٨ - مرحلة الكتابة :

وتأتي هذه المرحلة كآخر مرحلة من مراحل منهج البحث التاريخي ، ويبدأ الباحث بالكتابة حين يتأكد من أن جميع الحقائق ماثلة أمامه مرتبة ، معللة مشروحة . ومن أهم شروط عرض البحث التاريخي أن يعرضه صاحبه بطريقة علمية ، وأهم خصائص هذه الطريقة هي : المقدرة على على سلامة التعبير باللغة التي يكتب بها الباحث ، ومعرفة كيف يختار الألفاظ والصيغ اللغوية التي تعبر عن رأيه . وليس المقصود بالمقدرة اللغوية اختيار الألفاظ الصعبة - والعبارات الرنانة ، بل المقصود الكتابة بلغة سهلة واضحة تلائم الموضوع الذى يتناوله الباحث وتتفاوت بتفاوت اجزائه وتفصيلاته . وعلى الباحث أن يعرض موضوعه بأسلوبه الذى يكشف عن شخصيته ويوضح هويته . كذلك يجب ألا يكتب الباحث بحثه بأسلوب أدبى صرف غارق في البلاغه والبيان ، ولكن عليه أن يكتبه بأسلوب سهل فيه بساطة ودقة وتحديد ينتقى كلمات جملة انتقاءاً مع البعد عن الاطناب والاسهاب . ويكون موفقا في اختيار الفاظ جمله حتى اذا ما نقص لفظ من احداها اختلت الجمله بأكملها .

كذلك على الباحث أن يثبت وجوده باستمرار في البحث ، وأن يعلق على الحوادث بين آن وآخر حتى لا يكون ما يكتبه مجرد سرد لأقوال الآخرين . كذلك عليه أن يربط بين معلوماته ويعمل اجتهاده قدر حاجة بحثه .

وبعد التثبت من صحة الروايات يشرع الباحث في التأليف والكتابه وربط الروايات المختلفة ببعضها فينتقى منها ما يراه صالحا ويسقط ما يراه غير ذلك ،

ثم ينسق ما انتقى وينظمه فى وحدة متجانسة متآلفة قدر المستطاع . وعليه فى هذه المرحلة أنه يقارن بين الحقائق التى تجمعت عنده وأن يفند هذه الحقائق بعد ذكرها حقيقة بعد أخرى .

وعلى الباحث التاريخى ، أن يحترم آراء غيره ، حين يتعرض لسردها وأن يكون مهذبا فى تعبيره حين يتعرض لنقد هذه الآراء ، فعليه ألا يجرح أحد أو يحط من قدر رأيه، فرأى كل فرد يعبر عن ذاته ولابد من احترام ذاتيات الآخرين . واذا ما جاء رأى المؤرخ مغايراً لرأى الباحث، عليه أن يشير الى ذلك فى رفق وبأسلوب مهذب . فيقول مثلا :

"أورد المؤرخ فلان ..... ولكن ما أجمع عليه المؤرخون هو .... الأمر الذى يدلنا أن الحقيقة لم تتكشف تماما لهذا المؤرخ " ، لا أن نقول : "نستنتج من رأى المؤرخ فلان أنه قد كذّب فى رأيه وأن هذا ينم عن جهله للحقائق التى أجمع عليها المؤرخون" ، وغير ذلك .

ومن الشروط الواجب مراعاتها فى كتابة البحث ، أن يبدأ الباحث التاريخى فى تناول موضوعات بحثه حسب الترتيب الذى وضعه لبحثه ، بحيث يبدأ بموضوعات الفصل الأول ، ثم الثانى وهكذا . وفى حالة اذا ما أراد أن يضع مقدمة لبحثه فعليه أن يؤخر وضعها الى ما عند الانتهاء من كتابة كل فصول البحث ، حتى يستطيع أن يبين فيها ما بذله من جهد وأن يلخص ما تناول دراسة وما توصل اليه من نتائج .

وعلى الباحث أن يراعى فى كتابة بحثه أن تكون فصول هذا البحث متساوية فى حجمها ، قدر الامكان ، حتى يحدث التوازن المطلوب فى البحث . كذلك عليه أن يقرن السنوات الميلادية بالسنوات الهجرية اذا كان بحثه فى التاريخ الاسلامى ، ويمكن استعانته فى اثبات ذلك بالجداول التى وُضعت لهذا الغرض . كذلك على الباحث أن يثبت ما يحصل عليه من مصادر أجنبية معربا

بلغة عربية سليمة ، وما يؤخذ بالنص من مصدر عربي عليه أن يضعه بين قوسين أو بين شولتين ، مع الملاحظة أن ما ينقله الباحث بالنص من المصادر يجب ألا يزيد عن عدة سطور. وفي حالة اضطرار الباحث وحاجته الى نقل المزيد عليه أن ينقل ما يريد ويورده في ملحق من ملاحق البحث على أن يشير الى ذلك في صلب بحثه وفي حاشيته .

الحواشي (الهوامش) :

الحواشي جزء هام من أجزاء البحث التاريخي ، فليس هنالك بحث تاريخي دون حواشي . وقد توضع هذه الحواشي في أسفل صفحات متن الموضوع ، أو عند نهاية كل فصل من فصول البحث ، أو ترتب ترتيبا تسلسليا وتورد في نهاية آخر فصول البحث . وتترك الحرية للباحث أن يختار أياً من هذه الخيارات الثلاث . وضرورة الحاشية تأتي من ضبطها للوقائع والروايات الواردة في متن البحث التاريخي ، وهذا أمر ضروري في كتابة التاريخ . وفي الحاشية يثبت الباحث التاريخي ما يلي :

١- ما يأخذه الباحث من حقائق من المصادر فيشير الباحث فيها الى اسم المؤلف الذي نقل عنه واسم الكتاب ورقم الصفحة التي وردت فيها هذه الحقيقة . وفي حالة اتفاق عدد من المؤرخين في ذكر حقيقة واحدة فيكتفي في الحاشية ذكر المصدر الأهم . أما اذا حوت الحاشية اكثر من مصدر واحد لاثبات حقيقة واحدة فعلى الباحث ذكر اسم المصدر الأصلي أي الأقدم والأقرب لتاريخ الحادثة ، ثم المصدر الذي يليه في الأهمية وهكذا . وبعد ذكر المصادر الأصلية اذا ما كانت هنالك ضرورة لذكر مراجع فيرد ذكر المراجع العربية أولا ثم المراجع الأوروبية .

٢- ايراد الحوادث المماثلة ، التي يخشى في حالة وضعها في متن البحث أن تفسد الترتيب الزمني للبحث .

٣- تفسير لمواضع البلدان ، أو لهوية الشخصيات ، أو ايضاح لبعض الكلمات الصعبة او الغير واضحة في الأصل .

٤- اسماء الملاحق والخرائط والوثائق والصور التي تفسر بعض نواحي البحث ولم يمكن ايرادها في داخل المتن .

٥- اشارات لمعالجات لمواضيع في مكان سابق في البحث منعاً للتكرار .

طريقة كتابة الحاشية :

١- يكتب رقم الحاشية ثم يذكر اسم المؤلف كاملاً ، في حالة ذكره لأول مرة في الحاشية، أما اذا تردد ذكره بعد ذلك فيذكر موجزا ، ثم يلي ذلك وضع نقطتين رأسيتين ثم يرد اسم الكتاب بالكامل ، ويخضع لنفس ما يخضع له المؤلف اذا تكرر ذكره ، ثم توضع فاصلة ويرد ذكر رقم الجزء والمجلد، ثم مكان الطبعة وتاريخه ، ثم رقم الصفحة أو الصفحات .

٢- لا يذكر مكان طبعة الكتاب وتاريخ طبعته في الحاشية الا في أول مرة أما اذا تردد ذكر الكتاب بعد ذلك فلا يرد اسم الطبعة ولا تاريخها

٣- اذا كان المصدر مخطوطاً ، يجب كتابة بعد اسم المصدر كلمة (مخطوط) أو (مخطوطة) بين قوسين ، مع ضرورة مراعاة مكان تواجد المخطوط ورقم إيداعه عند ذكره لأول مرة في الحاشية ، وبعد ذلك إذا تكرر ذكره فلا داعي لذكر مكان تواجده ورقم الايداع .

٤- اذا كانت الحاشية خاصة بمصدر أجنبي تكتب بنفس لغة المؤلف ، ويراعى فيها نفس ما راعيناه بصدد المؤلفين العرب كأن نقول مثلا :

(1) S. Goitein: "studies in Islamic Historry and Institutions", London 1967,p.20.

واذا ما زاد عدد الصفحات التى تذكر من المصدر الأجنبي عن صفحة واحدة يكتب قبل الرقم حرف .pp ، أى صفحات ، واذا كان ما يليها من صفحات نكتب رقم الصفحة ونضع بعدها حرف ff مثل p. 220 ff أى ص ٢٢٠ وما بعدها . ولا يذكر اسم المؤلف واسم المصدر الأوروبى بالكامل ، اذا تردد ذكره ، فينطبق عليه ما ينطبق على المصادر والمراجع العربية من الاختصار فيقال مثلا :

(1) Goitein: Studies, p. 25.

٥ـ اذا تكررت حاشية تحوى نفس المؤلف والمصدر ، فيكتفى بذكر اسم المؤلف وكلمة نفس المصدر ونفس الجزء بجواره ثم رقم الصفحة . ، الا اذا اختلف رقم الجزء . فيشار الى الرقم الجديد .

٦ـ اذا تكرر ذكر المصدر الأجنبى فى الحاشية ، واسم الكتاب ، فيكتب رقم الحاشية بجوارها يكتب Ibid (بمعنى فى نفس الكتاب أو نفس الفصل أو الصفحة)، ثم يكتب رقم الصفحة . أو يكتب اسم المؤلف وبجواره يكتب : Op. cit.، وهى اختصار لكلمتين لاتينيتين هما : opere citato ، بمعنى فى المرجع المشار اليه سابقاً .

٧ـ ومن الاختصارات الأجنبية التى توضع فى الحاشية :

وهى اختصار ،(مخطوط) MS. (manuscript)

(مخطوطات) MSS. (manuscripts)

مجلد ــ مجلدات Vol. Vols (Volume - Volumes)

طبعة ed. (edition)

٨ ـ يجب ألا يُثقل الباحث حواشى بحثه بالمعلومات ويورد فيها كل شاردة وواردة ، وما يرد فى الحاشية يُبين مهارة الباحث ودقته .

الملاحق والوثائق :

وتوضع هذه الملاحق والوثائق فى آخر البحث ، وهى تحتوى على

شيء من المادة الأولية التي استقى منها الباحث مادة بحثه . وقد تكون هذه الأصول مراسلات أو مكاتبات دبلوماسية ، أو معاهدات حكومية واتفاقات تجارية ، وقد تكون رسائل أو خطابات ملوك وحكام . ولذلك من الأفضل أن تنشر هذه الأصول بلغاتها وعلى هيئتها التي وُجدت عليها ، مع تصحيح ما غمض منها وما اضطرب في حاشية يضعها الباحث للملحق أو الوثيقة . ولقد وُضعت هذه الملاحق والوثائق في خارج صلب الموضوع لما تستغرقة من صفحات طوال قد تقطع على القارئ سلسلة تفكيره وتمنع ربط تسلسل الأحداث مع بعضها . ومن الأمور التي يجب مراعاتها في أمر هذه الوثائق التالي :

١- أن يضعها مرقومة في نهاية بحثه ، على أن يشير في متنه الى رقمها وأن يحيل القارئ اليها وإلى رقمها اذا ما أراد ذلك .

٢- على المؤرخ ألا يعتبر كل ما يقع في يده من حقائق أنه وثائق ، وعليه أن يعرف أن الوثيقة المورد ة في الملاحق ، هي الوثيقة التي تتضمن - معلومات نادرة واردة في مخطوط أوفي نسخة وحيدة من كتاب مطبوع ، وأنها تحتوى على معلومات مفصلة تفيد مادة البحث وتفيد من يريد الاستزادة من المعلومات المتعلقة بالبحث .

٣- يجب على المؤرخ أن يأخذ وثيقته من مصدر واحد حتى لا يحدث اضطراب أو لبس عند نقلها ، قد ينتج من اختلاف عبارات الوثيقة في حالة تواجدها في اكثر من مصدر .

المصادر والمراجع :

وتأتي في خاتمة البحث قائمة بالمصادر والمراجع التي رجع اليها الباحث ، وتنظم هذه القائمة تنظيما أبجدياً ، تبدأ بالمصادر العربية ثم المراجع الأجنبية مرتبة أيضاً ترتيبا أبجديا . مع ضرورة مراعاة كتابة اسم

مؤلف المصدر كاملا ، ثم اسم المصدر كاملا ، ثم رقم الجزء والمجلد ، ثم مكان الطبعة وتاريخها .

وفي حالة ذكر المخطوط توضع كلمة ، (مخطوط)، بين قوسين بعد ذكر اسم المخطوط ، كذلك ذكر مكان وجود المخطوط ورقم ايداعه في مكان تواجده .

ويطلب من الباحث أن يضع فهرساً لبحثه في آخر البحث يُبين فيه مواضيع بحثه مشيرا أمامها بأرقام الصفحات التي يشغلها من صفحات البحث .

وبعد أن يفرغ الباحث التاريخي من بحثه عليه أن يرتبه وفقا للنظام الذي وضعه له فصلاً بعد آخر ، ثم يذيل بحثه بالوثائق والملاحق ، ان كان هنالك وجود لهما ، ثم يقدمه للقارئ على الوجه الأكمل الذي يرضى عنه بعد أن يكون قد إتبع المنهج العلمي الصحيح للبحث التاريخي الذي عرضنا له .

والله ولي التوفيق !

د . عطية القوصي

المصادر والمراجع

أولا - العربية

- ابن خلدون : " المقدمة " (الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، القاهرة ١٣٢٠هـ.
- أسد رستم : " مصطلح التاريخ " ، بيروت ١٩٥٥.
- توينبى ، أرنولد : " الفكر التاريخى عند الاغريق " ، ترجمة لمعى المطيعى ، القاهرة ١٩٦٦.
- جوزيف هورس : قيمة التاريخ ، ترجمة نسيب وهيبة ، بيروت ١٩٦٤.
- جوستاف لوبون : " فلسفة التاريخ " ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٤.
- حسن عثمان : " منهج البحث التاريخى " ، القاهرة ١٩٦٥.
- السخاوى (شمس الدين محمد): " الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " ، بغداد ١٩٦٢.
- سيد أحمد الناصرى : " فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه " ، القاهرة ١٩٨٢.
- شوقى الجمل : " علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى" ، القاهرة ١٩٨٢.
- عبد العزيز الدورى : " علم التاريخ عند العرب " ، بيروت ١٩٦٠.
- على ابراهيم حسن : " استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ الاسلامى " ، القاهرة ١٩٦٣.
- كولنجود ، و. ج : " فكرة التاريخ " ، ترجمة محمد بكير خليل ، القاهرة ١٩٦٣.
- محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث " ، القاهرة ١٩٤٩.
- منح خورى : " التاريخ الحضارى عند توينبى " ، بيروت ١٩٦٠.
- هرنشو ، ف . ج : " علم التاريخ " ، ترجمة وتحقيق عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٣٧.

المراجع الأجنبيـــــة

- Bury, J.D. : " Lecture on History", Cambridge 1903.
- Crump G. : " History and Historical Research, Routledge 1928.
- Froude, J.A. : " The Science of History", Cambridge 1903.
- Langlois, V. and Seignobos, Ch. : " Introduction in the Study of History", Duckworth, London 1932.
- Lucy, M. Salmon: " Why is History Rewritten", New York 1929.
- Myres, J.L. : " Herodotus, Father of History", Oxford 1953.
- Oman, Ch. : " On the Writing of History", Methuen 1939.
- Renier, G.J. : " History, Its purpose, and method", London 1950.
- Robinson, J.H. : " The New History", New York 1927.
- Rowse, A.L. : " The Use of History", London 1946.
- Shotwell, T. : " The History of History", New York 1950.
- Stern, Fritz : " The Varieties of History", U.S.A., 1956.
- Toynbee, Arnold: " Astudy of History", V.I-VI Oxford 1956.
- Wells, H. G. : " The Outline of History", London 1960.

فهرست الموضوعـــات

تم بحمد الله تعالـــى